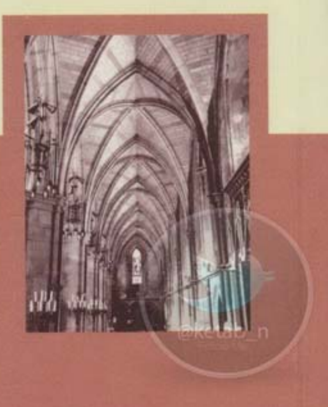
سلسلة نصوص



7.1.2015



تاريخ بيزنطية

تأليف جان-كلود شينيه

ترجمة د. جورج زيناتي



جان - كلود شينيه

تاريخ بيزنطية

@ketab_n

ترجمة

الدكتور جورج زيناتي

دار الكتاب الجديد المتحدة

Twitter: @alqareah

تاريخ بيزنطية

Twitter: @alqareah

Original Title:
Histoire de Byzance
by **Jean-Claude Cheynet**
Copyright © **Presses Universitaires de France, 2005**

جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع دار المطبوعات الجامعية الفرنسية ـ فرنسا

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية عام 2005
في دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في فرنسا

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2008

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2008 إفرنجي

تاريخ بيزنطية

ترجمة الدكتور جورج زيناتي

موضوع الكتاب تـاريخ | تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
الحجم 17.5 x 11.5 سم | التجليد عادي

ردمك ISBN 9959-29-401-3 | رقم الإيداع المحلي 2006/7819
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + خليوي 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + فاكس 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 11-96 رياض الصلح ـ بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الالكتروني www.oeabooks.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة للدار، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفـاكس: 013 07 34 21 218 + نقال 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: oeabooks@yahoo.com

Twitter: @alqareah

مقدّمة المؤلف للطبعة العربية

ورثت الإمبراطورية البيزنطية عدة أقاليم شرقية من الإمبراطورية الرومانية حيث كانت قد استقرت هناك قبائل عربية استغلتها لصالحها كي تدافع عن سوريا وفلسطين ضد الفرس. لقد فوجئ الإمبراطور [القيصر] هرقل بالحملات تشنها عليه الدولة الجديدة العربية التي أسسها النبي محمد ﷺ والتي كانت تستند إلى الدين الجديد الإسلام. وكاد الصراع الذي أعقب ذلك أن يذهب بالإمبراطورية البيزنطية، غير أن توازناً قد حصل بين الإمبراطورية وبين الخلافة الأموية. قامت هذه الأخيرة في دمشق مستفيدة من البنى الإدارية والاقتصادية المتوارثة من الرومان، وقد أُقيم الجامع الأموي الكبير في دمشق على الكاتدرائية القديمة من قِبل بنائين كانوا يُكملون التقليد البيزنطي، وقد زيَّنه بالفسيفساء صانعون يونان. إن الاتصالات الدينية، بل حتى السجالات مع الطوائف المسيحية مثل الملكيين والسريان واليعاقبة، أدت إلى إثارة ردود من المسلمين وساهمت في نشأة فقه دينهم الجديد.

وحتى حين انتقل مركز الدولة المسلمة إلى الشرق في منطقة التأثير الفارسي إلى بغداد فإن الخلفاء العباسيين استقبلوا الإرث الثقافي العلمي للعالم اليوناني بالترحاب، وهم مع استمرارهم بحروبهم ضد المسيحيين أَرسلوا يبحثون في أرجاء

Twitter: @alqareah

الإمبراطورية البيزنطية عن مخطوطات تعود إلى المؤلفين القدامى، ثم ترجموها، وقد أثرت هذه الحركة تطور العلوم عند العرب. في المقابل، فإن البلاط في القسطنطينية كان معجباً بقصر الخلافة في بغداد حتى إنه أشاد قصوراً شبيهة بقصور المدينة العباسية. ولقد كان هناك تبادل لسفارات عدة اتسمت بالبذخ، وكان همها إبهار الآخر، بين القياصرة (الأباطرة) البيزنطيين وبين الخلفاء. ولقد نشأ أدب ملحمي حول البطولات الحربية ضد المعسكر الآخر، شددت في آنٍ واحد على الآخر كعدو وكقريب.

تعلَّمَ البيزنطيون والمسلمون إذن أن يعيشوا جنباً إلى جنب وأن يقبلوا في الواقع وجودهم المشترك، ولم يغيّر الفتح السلجوقي الذي أفقد بيزنطية جزءاً مهماً من آسيا الصغرى، شيئاً في هذا التوازن. لقد كان على الصليبيين اللاتين أن يفهموا العلاقات التي تقيمها بيزنطية مع جيرانها المسلمين، لا أن يعتبروها، كما كانوا يفعلون أحياناً، تواطؤاً. تشكّل الإمبراطورية البيزنطية إذن أحد مصادر الحضارة الإسلامية الكلاسيكية، والجمهور العربي بلا شك، يهتم بمعرفة الخطوط الكبرى لتاريخها.

Twitter: @alqareah

مقدّمة المترجم

تاريخ بيزنطية هو تاريخ الجارة الكبرى للعرب في تاريخهم المديد، تاريخ قياصرة الروم في عاصمتهم الشرقية وعلاقاتهم الحربية والاقتصادية والثقافية بجيرانهم العرب والأوروبيين. لذا، فإن غياب المراجع العربية في هذا الكتاب أمر لافت، وقد كتبتُ لصاحبه وهو أستاذ في جامعة السوربون، أسأله السبب، فأجاب متلطفاً أنه كتاب موجّه في الأساس إلى القارئ الغربي، وهو مسرور جداً أن يُنقل إلى العربية، وكتب مقدّمة خاصة لهذه الطبعة من الكتاب.

العلاقة ببيزنطية طالت الشعر العربي منذ امرئ القَيس، الملك الضليل، الذي ذهب إلى قيصر القسطنطينية ليعينه على استرداد ملكه، وتُعَد قصيدة البحتري في فتح المعتصم لعمورية واحدة من أجمل قصائد اللغة العربية، أما أبو فراس الحمداني فقد نظم بعد وقوعه في الأسر عند الروم لاميته التي تُعَدّ واحدة من أرق قصائد اللغة:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة

أيا جارتا هل تشعرين بحالي

إن كنا قد ذكرنا الشعر فلكي نقول إنّ الناس على الرغم من

Twitter: @alqareah

الحروب والمآسي فهم يتلاقون ويجدون أن ما يجمعهم أكثر بكثير مما يفرقهم، وأن هناك إرثاً بشرياً من العلوم والآداب هو الأبقى. بهذا الصدد يؤكد الجاحظ أن الورثة الحقيقيين لأي علم هم الشعب الذي يهتم بهذا العلم ويطوره، آخذاً على الروم إهمالهم العلوم التي كتبت بلغتهم. بالفعل، فإن هناك حكماً مسبقاً تناول كل تاريخ بيزنطية وثقافتها يقول إنها أهملت العلوم لصالح الجدل اللاهوتي حتى أصبح الجدل البيزنطي مرادفاً للجدل العقيم. وهذا الكتاب يعير هذه الناحية اهتماماً خاصاً في حدود مجمل مسار التاريخ، ويحاول أن يضع القضية في سياقها الحقيقي، بنوع من الرد على كل الذين يظلون أسرى أفكارهم المسبقة، وتاريخ بيزنطية مليء بمثل هذه الأفكار، بل هو أسيرها.

في القرن الماضي كانت هناك حملة عنيفة شنَّتها مدرسة الحوليات في فرنسا على منهاج كتابة التاريخ، واكتفائه في غالب الأحيان بسرد الأحداث والتحدث عن الملوك والحكّام، فكانت ثورة على التاريخ الوقائعي غيَّرت كل طريقة كتابة التاريخ، ونجد صدى لهذه الثورة في هذا الكتاب على القارئ العربي التنبه لها؛ فالاهتمام هنا ليس للمعارك وللملوك بل للبنى التي تحكَّمت في الدولة والمجتمع وفي حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية.

Twitter: @alqareah

مقدّمة

إن اختصار ألف صفحة من تاريخ أكبر دولة مسيحيّة في العصر الوسيط في مائة صفحة كان الرهان الذي لم يتردّد في قبوله، قبل أكثر من سبعين سنة، المتخصّص بالدراسات البيزنطيّة بول لوميرل (Paul Lemerle). وإنّه لشرفٌ كبير لي أن أضع اسمي بعد اسمه. إن الظروف قد تغيّرت، ذلك أن الدراسات البيزنطيّة قد عرفت نجاحاً حقيقياً منذ الحرب العالمية الثانية، ولم يكن ذلك وقفاً على البلدان التي مازال تأثير الحضارة البيزنطية بارزاً فيها بشكل مباشر، عن طريق الدين أو الهندسة المعماريّة الضخمة أو الآثار التي تبرزها الحفريات، والتي يزداد عددها وتمتد من بلاد البلقان إلى روسيا. العديد من المتخصّصين في الدراسات البيزنطية ينشرون مؤلّفاتهم في أوروبا الغربية وفي الولايات المتّحدة، وكذلك في أستراليا واليابان والصين... وفي تركيا بدأ الناس يشعرون بأن بيزنطية تشكّل جزءاً من التاريخ الوطني.

إن كثرة الكتابات والأبحاث الجديدة تبرّر توزيع تاريخ بيزنطية إلى كتابين من سلسلة «Que sais-je?»(*): هذا الكتاب،

(*) «ماذا أعرف» هي التسمية الفرنسية لهذه السلسلة، ونحن أطلقنا عليها تسمية «نصوص».

Twitter: @alqareah

المكرَّس إلى التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية، وكتاب آخر مؤلفه ب. فلوزان (B. Flusin)(*)، وهو سيعالج الحضارة. مثل هذه القسمة تحوي العديد من المساوئ، إذ إننا لا نستطيع أن نعزل التيارات الفكرية أو المصنّفات الأدبيّة عن محيطها السياسي والاقتصادي. ستكون هي إذاً نقاط تقاطع خصوصاً حول تطوّر المسيحية وتكوين الكنيسة.

سيلاحظ القارئ أنَّ التوزيع الزمني لنصِّي يختلف بعمق عن توزيع ب. لوميرل، الذي كرّس أكثر من نصف كتابه للعصر البيزنطي الأوَّلي، في حين انه هنا لا يحتل إلاّ الربع. إن مسألة معرفة متى نجعل تاريخ بيزنطية يبرأ ليست جديدة: مع قسطنطين (Constantin) أو هرقل (Hercule) بل حتى الأباطرة الأيصوريين «isauriens»(**). ولكن يبدو أنه من الصعب تجاهل قسطنطين والعصر البيزنطي الأول الذي يعطي للإمبراطورية بعض سماتها الأساسية، وتحويل الحكم الأوغسطسي المُقام في روما إلى نظام ملكي مسيحي يحكم بحق إلهي، وقد استقرّ بضفاف البوسفور. ولقد أخذتُ بعين الاعتبار ظهور كتابين في سلسلة «**ماذا أعرف؟**» من تأليف ب. لانسون (B. Lançon)، الأول حول «قسطنطين»، والآخر حول «العصر القديم المتأخِّر»، وكذلك ظهور كتاب ثالث تأليف پ. مارافال (P. Maraval) حول يوستنيانوس (Justinien)، لذا فإني لم أعالج التاريخ الوقائعي، وأنا لا أذكر سوى إقامة بُنى الإمبراطورية المسيحية.

(*) B. Flusin, La Civilisation Byzantine, PUF, Que sais-je?, 2005

(**) أسرة حكمت بيزنطية من سنة 717م إلى سنة 802م. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الفصل الأول

نشأة الإمبراطورية الرومانية الشرقية

إن الاحتفالات التي صاحبت في 11 أيار/مايو عام 330م تأسيس قسطنطين المدينة التي أعطاها اسمه تمثِّل نشأة الإمبراطورية القادمة التي نسمِّيها البيزنطية، غير أن الأباطرة ورعاياهم اعتبروها دوماً إمبراطورية رومانية. أَنْ نعيد ذِكْرَ المشاجرات التي كانت حول معرفة متى ولدت الإمبراطورية البيزنطية الفعلية هو أمر لا طائل تحته، فبالنسبة إلى البيزنطيين أنفسهم يُعتبر قسطنطين الكبير هو الإمبراطور [القيصر] المرجعية في العصر الوسيط. وهذا يُفهم بسهولة: لقد أورث قسطنطين أبناءه وخلفاءه إمبراطورية موحَّدة، يحكمها حاكم لا منازع له، وعاصمة ثابتة حيث تقام إدارة مركزية، وقد دشن سياسة دينية تساند المسيحية، ووضع أسس العلاقة بين الإمبراطور [القيصر] والكنيسة. كان كل إمبراطور هو «قسطنطين» جديد، وجعل ميخائيل الثامن (Michel VIII) هذا القول ضمن الألقاب التي يحملها، ولقد سمَّى العديد من مغتصبي السلطة المحظوظين ابنهم ووريثهم قسطنطين.

Twitter: @alqareah

I ـ الإمبراطورية وحاكمها

1 ـ **وحدة الإمبراطورية:** لقد اعتبر قسطنطين النظام الرباعي الذي أقامه ديوكليتيان (Dioclétien) من أجل التغلّب على الأزمة العسكرية التي كانت تستدعي وجود إمبراطور [قيصر] على كل حدود واقعة تحت تهديد دائم، نظاماً غير قابل للحياة، لذا لم يتوقف عن السعي إلى العودة لنظام سلطة ملكيّة واحدة. في يورك «York» عام 306 جعل جند أبيه كونستانس كلور (Constance Chlore)، وهو أحد الحكام الأربعة، ينادون به أوغسطس. احتل روما عام 312م حين انتصر في معركة جسر ملفيوس «Milvius» على خصمه الغربي ماكسانس (Maxence) الذي كان يقود جيشاً يفوق جيشه عدداً. ولقد رأى قسطنطين عشيَّة المعركة، حسبما قيل، في المنام أو في رؤيا ـ الروايات تختلف هنا ـ إشارة في السماء يمكنه أن ينتصر بها. وقد تكون هذه الإشارة عبارة عن طغراء المسيح (رمز يمثّل اسم المسيح) مؤلَّفة من الحرفين X و R وقد أصبحت في ما بعد شعاراً للجيوش المسيحية. يحتمل الأمر أن يكون قسطنطين قد صار من أتباع المسيح الذي أهداه هذا الانتصار الإلٰهي. وبعد أن قضى عشر سنوات وهو يحكم بالمشاركة مع لوسينيوس (Licinius)، استطاع أن يُتمّ توحيد الإمبراطورية بعد انتصاره في معركة كريزوبوليس Chrysopolis عام 324م.

إن وحدة الإمبراطورية لم تكن تتعارض مع تعدّديَّة الأباطرة، حتى وإن كان الميل الطبيعي يتجه نحو النظام الملكي الواحد. لقد احتفظ أباطرة الغرب والشرق بعد عام 395م بتشريع واحد. ولقد ترجمت نهاية الإمبراطورية الغربية عام 476م فقط بإرسال الشارات الإمبراطورية إلى القسطنطينية، وبترويج القصة

Twitter: @alqareah

القائلة إن الملوك البرابرة يعترفون بسلطة الإمبراطور [القيصر] الوحيد في القسطنطينية، بالتالي فإن سلطانهم لم يكن من الطبيعة نفسها. ففي العصر الوسيط كان الإمبراطور [القيصر] الذي يمارس كل صلاحيَّاته وامتيازاته يدعى أوتوقراطر autokratôr (أي الذاتي السلطان) لتمييزه عن الأباطرة الآخرين الذين يشاركونه في الحكم، وهم من أولاده في غالب الأحيان الذين توَّجهم في حياته، من باب الحيطة.

2 ـ **الوظيفة المقدَّسة للإمبراطور**: لقد احتفظ قسطنطين وخلفاؤه وصولاً إلى ثيودوسيوس (Théodose) بلقب الحبر الأعظم، وإذا كان على الإمبراطور [القيصر] بحسب التقليد الروماني أن ينادي به الجيش ومجلس الشيوخ والشعب فإنه اليوم يستمد سلطته من الإله الواحد. وفي هذا الانتخاب الإلهي لا تلعب الكنيسة أي دور، فقط في عام 457م بارك بطريرك القسطنطينية القيصر بعد تتويجه. وعلينا انتظار عصر نيقيا Nicée أو عصر أسرة باليولوغوس (Paléologues)(*) كي نرى الإمبراطور [القيصر] يتلقَّى مسحة البطريرك، وذلك تحت تأثير الطقوس الاحتفالية الغربية.

على الإمبراطور [القيصر] أن يحكم على خطى المسيح، غير أن الرأي العام يعرف أنه في الواقع إنسان ومعرَّض للخطأ، لذا يحرص على «الاقتصاد» أي بروح من إيجاد حلّ وسط توافقي، فإن المطلوب منه فقط أن يبذل قصارى جهده من أجل الخير

(*) اسم أسرة استولت على الحكم في منتصف القرن الثالث عشر واستمرت بالسلطة طوال قرنين إلى سقوط القسطنطينية عام 1453م، وقتل آخر قياصرتها قسطنطين الحادي عشر. (المترجم).

Twitter: @alqareah

العام للشعب المسيحي. ومن أجل تأييده في عمله، فإنه يحظى بصلوات المؤمنين وبشفاعة أفضل الناس وهم بشكل خاص القدِّيسون. وتحارب الإمبراطورية بعد اليوم من أجل انتصار المسيح. من هنا فإن كل المعارك التي خاضها البيزنطيون كانت دوماً حروباً عادلة، من أجل الدفاع عن إخوتهم في المسيح.

تقدِّس هذه الشرعية الإلٰهية الوظيفة الإمبراطورية، وكل هجوم عليها يُعاقب معاقبة خاصة، وهي فقء عينَي المذنب. وهكذا فإن من شنّ الهجوم يجد نفسه وقد أصبح خارج من يستطيع أن يطالب بحكم الإمبراطورية من جديد، لأن من يريد أن يحكم ينبغي عليه أن يكون إنساناً يملك كافة وظائفه الجسديَّة، فالخِصْيان كانوا كذلك بسبب وضعهم خارج أي منافسة على المنصب، كان الاحتفال يعكس المسافة القائمة بين من اصطفاه اللَّه وبين بقيَّة البشر، حيث كان الناس يحيونه بالركوع فيُلقي الزائر نفسه إلى الأرض، ولا يخاطبه أحد مباشرة، وكذلك فإنَّ لباس الأُرجوان مقصور عليه وحده. أما غرفة القيصر فكانت محظورة على كل رجل ذي لحية، وأصبحت الميدان الخاص المحجوز للخصيان الذين ازداد تأثيرهم منذ نهاية القرن الرابع الميلادي.

3 ـ **اغتصاب السلطة والوراثة**: إن كانت وظيفة القيصر غير قابلة لأي اعتراض ـ هذا لم يحصل ـ غير أن الرجل ليس خارج حلقة النقد. على الإمبراطور [القيصر] الجيّد أن يحمي رعاياه وأن يتكفَّل بإقامة العدل وأن يبرهن على أنه يتمتع بفضيلة القيصر الأولى وهي محبة البشر. إنه المشترع بامتياز، حتى وإن كان يفوِّض إلى القضاة أمر كتابة القوانين أو الصياغة الجديدة لها، وأن يجيبوا برسائل على التساؤلات العديدة لمكاتب البلاط أو حكام المقاطعات، وكانوا بذلك يراكمون تشريعاً متشابكاً بل ومتناقضاً أحياناً.

Twitter: @alqareah

لا يستطيع الإمبراطور [القيصر] إذاً أن يحكم تعسفياً ولا أن يخل باحترام الوصايا المسيحية من دون أن يصبح عندئذٍ «طاغية» يتعرّض للغضب الإلهي، الذي يبتدئ عادةً بصورة كوارث تصيب الإمبراطورية، ليس أقلّها هزيمة جيش القيصر، وأن يخلق اللّه له منافساً، وانتصارٍ هذا الأخير الحاسم يترجم التخلّي عن الحاكم القديم، وهذا يشكِّل في ذاته البرهان على سوء أفعاله. إن خلافة الإمبراطور [القيصر] مفتوحة مبدئياً، نظراً لأن ليس في استطاعة البشر أن يحدّوا خيارات اللّه، غير أن الأباطرة الذين يتبوّؤون السلطة ابتداءً من قسطنطين، حاولوا أن يورثوا الحكم لأبنائهم. ولقد فرض مبدأ الوراثة نفسه في النهاية كواقع، غير أن محاولات اغتصاب السلطة بقيت عديدة وقد قام بها على الأخصّ القادة العسكريّون.

4 ـ **خدمة الأمير**: لقد أحاط الأباطرة أنفسهم بمستشارين شخصيِّين. ولقد حافظ قسطنطين وأبناؤه على هذا التقليد حين جمعوا المجتمع. كان تحديد تأليفه يتوقَّف على رغبة القيصر الذي كان يدعو إليه كبار الموظَّفين. وكان ينتمي إلى هذا المجتمع المراقب المالي ومدير المراسم، وكوِّنت الممتلكات المقدَّسة، وكوِّنت الأملاك الخاصة. كل المواضيع الرئيسية كانت تُثار هناك: التقارير العسكرية، وتهم الخيانة العظمى، والمسائل الدينية، وكل القضايا التي تصل إلى يدي الملِك، وتعيين كبار رجال الدولة، واستقبال السفراء.

5 ـ **البلاط الإمبراطوري**: إن النظام الأرضي، وقد أصبح بعد اليوم انعكاساً للنظام السماوي، ثابت لا يتغيَّر. وعلى كل واحد أن يجد فيه مكانه، وبطبيعة الحال فإن الإمبراطور [القيصر] يقف على قمَّة التراتبية. إن الانتماء إلى طبقة أصحاب المقامات العالية كانت تحدِّده الوظيفة المُناطة بالشخص. ولقد تطورت الوظائف والرتب

Twitter: @alqareah

العليا خلال القرون، غير أن المبدأ التراتبي لم يتلاشَ قط، وبقي عندنا بعض لوائح الأفضليَّات في العصر الوسيط، وهي تعطينا مفتاح ذلك النظام. إنَّ مؤلِّف كتاب «Clétorologe» من فيلوتيوس «Philothée» عام 899م يخبرنا كيف أن كل واحد كان يوضع أثناء الولائم قريباً من القيصر أو بعيداً عنه بحسب منزلته. وكان هناك تمييز مزدوج، يتمّ من ناحية أولى بين الملتحين والخصيان، الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة في غرفة القيصر وكان يطلب إليهم القيام بالمهمات المختلفة، ومن ناحية ثانية بين المناصب العليا التي يمنحها القيصر مدى الحياة والتي كانت أعلاها تفتح الباب أمام مجلس الشيوخ، وبين الوظائف التي كانت تُمنح بحسب رغبته ويسحبها متى يشاء. كان هناك تناسب باقٍ بين التراتبيَّتين لأن المسؤوليات العليا كانت تصاحبها في الغالب المناصب الأعظم. غير أن بعض الذين كانوا يتولَّون المناصب الشريفة كانوا أحياناً لا يمارسون أيَّ مسؤولية. إنّ المناصب العليا أو الوظائف كانت تعطي صاحبها راتباً يتناسب مع أهميّتها، وكان الإمبراطور [القيصر] شخصياً يُسلِّم الرواتب العالية لأصحابها. وفي عهد قسطنطين السابع حضر السفير الإيطالي في بلاط القسطنطينية، وهو ليوتبراند (Liutprand) من كريمونا «Crémone» التوزيع السنوي للرواتب في أسبوع الفصح في القصر الكبير. وهو يخبرنا بأن خادم قائد الجيش قد دعا آخر كي يساعده على حمل وزنات الذهب والأقمشة والأغراض الثمينة التي كانت تعود إلى تلك الوظيفة.

II ـ القسطنطينية وإعادة تنظيم الشرق

إن تأسيس القسطنطينية هو حدث رئيسي، لأن المدينة الجديدة أصبحت أكثر مدن الشرق اكتظاظاً بالسكَّان، ثم بعد ذلك

Twitter: @alqareah

في كل الإمبراطورية بسبب انحطاط روما. بعد أن تخلَّص قسطنطين من لوسينوس بعدَّة أشهر اتَّخذ قراره بأن يؤسِّس مكاناً جديداً يقيم به الإمبراطور، وبعد أن تردَّد كثيراً وقع خياره على مستعمرة قديمة كانت قد أسَّستها مدينة ميغار «Mégare» وتقع على مضيق البوسفور، وتدعى بيزنطية التي حملت اسم مؤسِّسها فأصبحت القسطنطينية. إن خلق مدينة إمبراطورية لم يكن بلا سابقة، تشهد على ذلك نيقوميديا «Nicomédie» المدينة المجاورة. لقد أراد قسطنطين أن يقيم روما جديدة، وذلك ليس من أجل التخلِّي عن روما القديمة، بل من أجل تأكيد بقاء الإمبراطورية في الشرق واستمرارها. إنَّ موقع المدينة الجديدة وابتعادها الكافي عن الحدود الفارسية والدانوبية كي لا تقع ضحية أي هزيمة، ووجودها على محاور كبرى للمواصلات البريَّة والبحرية، كانت تعوِّض عن عيوبها، مثل نقص المياه وطبيعة الأرض غير المستوية التي تتطلَّب أشغالاً كبيرة لتسويتها. ولقد تأمَّن تحويل الأشغال الأولى بفضل أموال ليسينيوس، وهكذا بدأ تشييد قلب المدينة التي كانت تضم 700 هكتار.

ولكي يربح قسطنطين رهانه ويجلب السكان إلى مدينته وزَّع 80000 حصّة يومية من الخبز، وحثَّ أعضاء مجلس الشيوخ القادمين من روما على بناء قصور لهم فيها. عند مماته عام 337م كان قصر مجلس الشيوخ قد شُيِّد، وكانت حمامات زوكسيب Zeuxippe، وميدان السباق الموسع قد انتهى العمل فيها، مع ذلك، فإن النجاح لم يكن بعدُ أكيداً. ولقد تابع كونستانس الثاني (Constance II) (قسطنطيوس) عمل والده فعيَّن على المدينة والياً يقوم بوظيفة مطابقة لوظيفة والي روما، وأعطى مجلس الشيوخ الامتيازات عينها التي يتمتَّع بها المجلس في روما، بعد أن زاد

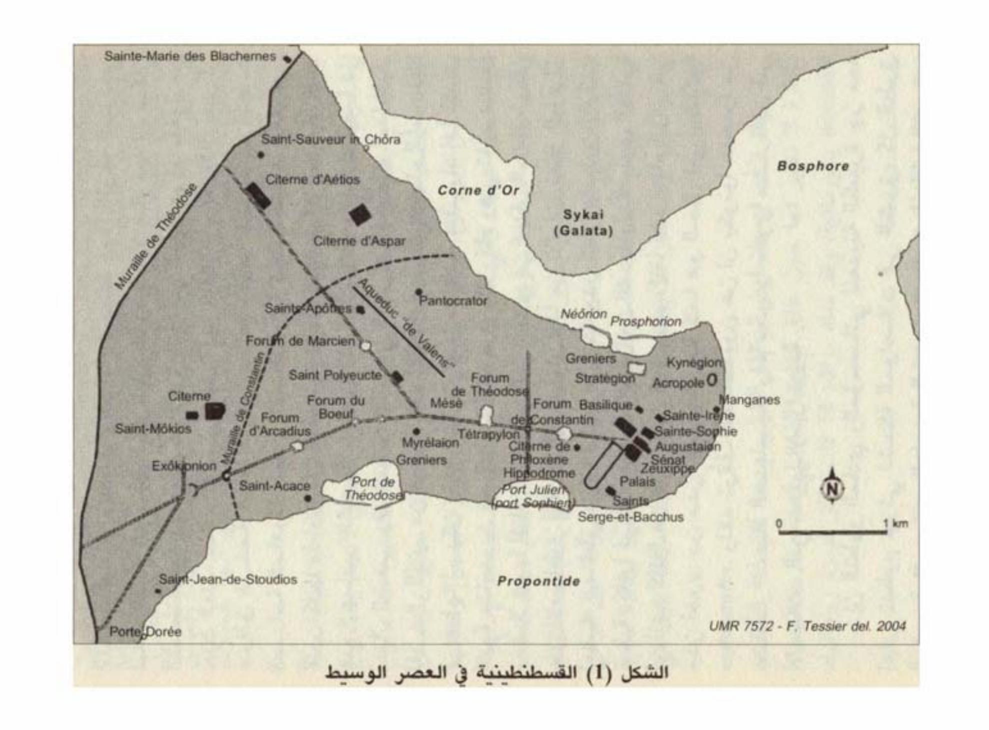
Twitter: @alqareah

كثيراً عدد أعضائه بفتح أبوابه أمام المالكين الشرقيين.

ولقد استمرت المدينة بالتوسّع بفضل تشييد موانئ جديدة على بحر مرمرة، والشروع بأعمال كبيرة لجرّ المياه التي كانت تتطلّب بناء خزانات تحت الأرض وفوقها، وكان لا بد من تأمين حمايتها في حال وقوع حصار، فبنى ثيودوسيوس الثاني (Théodose II) وسطاً جديداً للمدينة يحتويها، وهكذا تضاعفت مساحة المدينة. إنَّ الأرض الواقعة بين السور القديم الذي أمر به قسطنطين وبين السور الجديد لم تملأه الأبنية بشكل كثيف، لذا فقد شيِّد هناك في ما بعد العديد من الأديرة بين الحدائق. تشكِّل هذه الكيلومترات السبعة من المتاريس نجاحاً باهراً لفن الهندسة العسكرية القديمة: سور مزدوج تسبقه حفرة واسعة وتقوِّيه أبراج عديدة، وقد فتحت أبواب للدخول إلى المدينة، وكان أحدها وهو الباب الذهبي على منفذ طريق أغناطيا «Egnatia»، لم يكن يُفتح إلاّ للاحتفال بانتصار إمبراطور أو قائد عسكري. كانت الأسوار ترمم باستمرار، وتكلِّف غالياً، ولقد بقيت صامدة لا يستطيع أحد الاستيلاء عليها طيلة فترة بقاء الإمبراطورية حتى عام 1453م. أما الصليبيون الذين احتلوا المدينة سنة 1204م فقد دخلوها من طريق الأسوار البحرية التي شُيِّدت في فترة متأخرة، وكانت أقل ضخامة.

لقد شُيِّد القليل من الكنائس أيام قسطنطين. ولم تشيّد أول كنيسة باسم آيا صوفيا (Sainte-Sophie) (الحكمة) قبل عهد كونستانس الثاني (قسطنطيوس). لقد كثرت الكنائس في القرنين التاليين بفضل مساندة الأباطرة (القياصرة) أعضاء مجلس الشيوخ الأغنياء: القدِّيس يوحنا ستوديوس (Saint-Jean de Stoudios)، والقدِّيس بوليوكت (Saint-Polyeucte)، وبالطبع كنيسة آيا صوفيا التي شادها يوستنيانوس. كما بُنيت معابد أقل ضخامة من الكنائس

Twitter: @alqareah



الشكل (1) القسطنطينية في العصر الوسيط

Twitter: @alqareah

وكذلك الأديرة، انطلاقاً من نهاية القرن الرابع، في ضواحي المدينة.

لقد تزايد عدد السكان سريعاً لأن الاستثمارات الخاصة أتاحت بناء منازل عديدة. ولقد أتاح انحطاط روما التوجّه التدريجي لناتج القمح المصري نحو البوسفور. مما لا شك فيه أن سكان القسطنطينية في منتصف القرن الخامس الميلادي قد بلغوا، من حيثُ العدد، حدَّهم الأقصى وكانوا بين 400000 و 500000. غير أن حرائق ضخمة حصلت ولم تصلح آثارُها كما يجب، قلّصت المساحة المأهولة. أخذت القسطنطينية تجذب الفقراء المعدمين الذين كانوا يأملون بأن تحتضنهم إحدى المؤسسات الخيرية. كانت هذه الجماهير الشعبية حساسة لكل الشائعات، وتشارك أيضاً في أعمال الشغب، وقد انتظمت غالباً في الزمر أو التجمُّعات المناطقية. لقد سال الكثير من مداد الأقلام للكتابة حول طبيعة هذه الزُّمر، ذلك أن عملها لم يكن يتبع خطاً سياسياً منتظماً، فلقد رأيناها تشكّل أندية مناصرين مع ألوانها الخضراء والزرقاء وهي تؤيِّد سائقاً مفضّلاً لديها أثناء المنافسات التي تجري في ميدان السباق، وكان على الإمبراطور [القيصر] أن يختار لوناً من الألوان. نعتبر اليوم أن أعضاء المناطق هؤلاء الذين على ما يبدو كانوا يحظون بأوقات تسلية، كانوا في الأصل المستفيدين من المحصول السنوي المدني، أي أنهم كانوا من المواطنين المُوسِرين. إننا نجد نظام الزمر في مدن أخرى من مدن الإمبراطورية كما هو الحال في أنَطاكية «Antioche». ولقد توقّف المناطقيّون عن أن يكونوا عنصراً من عناصر الحياة السياسية، ولم يعودوا سوى مشاركين في الاحتفالات التي تحييها الإمبراطورية.

إن التطوّر المادي والمؤسساتي للمدينة الكبيرة جرّ معه إعادة تنظيم جزئي لشبكة المواصلات في الشرق، كل الطرق الرئيسية تتجه نحو العاصمة الجديدة: إن طريق أغناطيا التي تمر

Twitter: @alqareah

عبر البلقان من مرفأ ديراكيون Dyrrachion، والطريق التي تصل إلى الدانوب من أندرينوبولي «Andrinople»[*] وفيليبوبوليس «Philippoupolis» وسنغيدونوم «Singidunum» (بلغراد)، والطريق الموصلة بين العاصمة وأَنطاكية، والطريق التي توصل إلى أَرمينيا عن طريق سيباست. أما في آسيا الصغرى، فإنَّ الطرق من الشرق إلى الغرب والتي كانت تقود إلى ميناءَي بحر إيجة «Égée» أفسس «Éphèse» وإِزمير «Smyrne» لم تتلاشَ تماماً، غير أنها خسرت قسماً من رحلاتها.

1 ـ **المركزية الإدارية**: لقد وضع إنشاء القسطنطينية حدّاً للتحرك الدائم للأباطرة، على الأقل في الشرق لأنهم يقيمون باستمرار بعد اليوم بالقصر الكبير، وقد شاد قسطنطين نفسه أوّل أبنيته، قصر دفني (Daphné) والخلكي (Chalcé) (صيوان يشكّل مدخلاً من البرونز). وتقيم جيوش الإمبراطور [القيصر] وقادتها في القصر عينه. وفي القرب منه تقع مكاتب الخدمات الإدارية، ومنها موقع قيادة الشرق التي ترأس الإدارة المحلّية، وتستخدم عدداً من الموظفين يفوق الألف شخص. أما بقيّة المحافظات المناطقيَّة فهي أقل شأناً. أما الإدارات المالية فهي موزَّعة بين الوالي المكلَّف بجمع الضرائب السنوية وبين كونتَيْن مكلَّفَيْن بإدارة مالية الإمبراطور. ولقد كان التاج طيلة تاريخ بيزنطية المالك الأول في الإمبراطورية.

لقد زوَّد قسطنطين النظام المالي ومعه التجارة الكبرى بإدارة لا نظير لها حين خلق الفلس الذهبي المدعم أو نوميسما nomisma باليونانية، وقد سك بواقع 72 فلساً لكل ليبرة رومانية،

(*) الاسم القديم لمدينة أَدرَنَة Edirne في تركيا اليوم. (المترجم).

Twitter: @alqareah

أي بواقع قطعة من 4,5غ من الذهب الجيِّد. ولقد قاوم الفلس كل الأزمات المالية في الإمبراطورية حتى القرن الحادي عشر. أما قطع العملات الخاصة فقد استُخدمت لدفع المستحقّات اليومية المتواضعة، لأن الاقتصاد البيزنطي الأولي كان خاضعاً بشكل كبير لقطع النقود. لقد كان الذهب يُضرب في عدَّة مشاغل في تيسالونيكي «Thessalonique» ونيكوميديا وأنطاكية وقرطاجة وسيراكوز «Syracuse»، في العصر البيزنطي الأول، قبل أن يتمركز كل شيء، ابتداءً من سنة 850م في القسطنطينية وحدها.

2 ـ **التغييرات التي أُدخلت على الجيش**: لقد تشكَّل الجيش مع حروبه أثناء وبعد حكم الأربعة، وكان يملك نواة مركزية هي فوج الحاشية الذي يرافق الإمبراطور [القيصر] في حملاته. وكانت هناك فرق جديدة عديدة تقيم بالقرب من العاصمة بإمرة القادة الرؤساء. أما بقية الفيالق ومن كان يشكِّل الجيش القديم فقد توزَّعت على شتى الحدود، وألَّفت ما سمِّي بحرس الحدود. استمر هذا التمييز بين هذين الصنفين من العسكر أثناء كل العصر البيزنطي الأول، غير أن الجيش تطوَّر كثيراً خلال هذه القرون الثلاثة. لقد أصبحت الخيَّالة هي الأساس في الجيش المركزي الذي زاد كثيراً من سرعة تحرِّكه. أما بالنسبة إلى حرس الحدود فإنهم فقدوا أهميَّتهم في الوقت الذي تخلّى فيه القادة عن الدفاع عن الإمبراطورية على خط محصن.

لقد أثار استخدام البرابرة داخل الجيش معارضات عنيفة في القسطنطينية، بلغت ذروتها سنة 400م حين ذُبح القوط مع قائدهم غايناس (Gaïnas). إلاّ أنّ ما حصل هو أن البرابرة، خصوصاً القوط، حين قدموا كمعاونين أو دخلوا الوحدات الخاصة بالنخبة، في القرنين الرابع والخامس، ثم العرب الغساسنة على

Twitter: @alqareah

الحدود السورية الفلسطينية في القرن السادس، قد ساهموا بنجاح في الدفاع عن الإمبراطورية. وفي عهد الإمبراطور [القيصر] موريس (Maurice) فإنَّ فرق النخبة وقد سُمّوا الأفضل، كانوا من اللومبَرديّين (Lombardes) وغيرهم، وقد تشكّلوا من طريق تجميع العديد من الجنود الذين كانوا في خدمة القادة البيزنطيين، أو ربما من بين أعضاء الفيدرالية الذين كانوا يجنّدون كذلك اليونانيين، وقد أصبح مجموعهم يضم مجمل جيش النخبة الجديد. كان هذا الجيش يتبع الإمبراطور [القيصر] ومن هنا جاءت تسميته التابع (obsequium). بعد أن خدم تحت إِمرة هرقل أعيد إلى الوطن كي يحمي العاصمة من هجمات العرب، وقد شكّلت فرقة التابعين (Opsikion) إحدى كُبْريات الدوائر العسكرية التي أُوجدت بعد تراجع بيزنطية في الشرق.

III ـ الكنيسة في الإمبراطورية

التقى قسطنطين ولوسينيوس في ميلانو في حزيران يونيو/313م وأكّدا منشور ساردیكا Sardique الذي اتخذه زميلهما السابق غالير (غاليريوس) (Galerius, Galère)(*)، ووضع حدّاً لاضطهاد المسيحيين. إنَّ حريّة العبادة، بعد ذلك ستعطي الفرصة لانطلاقة جديدة لتطوّر المسيحية، التي كانت لا تزال في ذلك

(*) مرض غاليريوس الإمبراطور الروماني مرضاً شديداً، بعد اضطهاده للمسيحيين، فاعتقد أن غضب إلٰههم وراء مرضه، فأصدر في 30 نيسان/ ابريل 311م منشوراً يدعو فيه إلى التسامح الديني وهو في مدينة سرديكا التي هي اليوم صوفيا عاصمة بلغاريا، وقد مات بعد ذلك بأيام. (المترجم).

Twitter: @alqareah

التاريخ أقليَّة في الإمبراطورية، وحتى في الشرق، حيث كانت الجماعات المسيحية أكثر. إنَّ هذا القرار وتحوّل الإمبراطور [القيصر] إلى المسيحية قادا إلى ضرورة تحديد العلاقات بين الكنيسة وبين الإمبراطورية.

1 ـ **إقامة البُنى الكنسية**: لقد أقيم التنظيم الكنسي على نموذج تنظيم الدولة: حظيت كل مدينة بأُسقفها، والذي كان أُسقفاً على مدينة لها رتبة مدينة رئيسية لمقاطعة متروپوليس «Métropole» اكتسب صفة الأسبقية على زملائه بوصفه متروپوليت. ومنذ قسطنطين مُنح رجال الإكليروس بعض امتيازات موظفي الإمبراطورية، وكانوا مميَّزين داخل الجماعة المسيحية. والذين كانوا معيَّنين في كراسي محدّدة حظوا تدريجياً باعتراف خاص، وخصوصاً لانهم كانوا يسكنون في المدن الكبرى وبسبب دورهم المتقدِّم أثناء مناقشات المجامع. ولقد تميّزت في البدء ثلاث مدن، هي روما والإسكندرية وأَنطاكيا، والكرسيَّان الأخيران كانا يضمّان مدارس لاهوتية في غاية النشاط. إن أُسقف العاصمة لم يكن في البداية سوى وكيل مدينة هيركليو «Héraclée» في مقاطعة ثراس «Thrace»، ولكنه حين أصبح كرسي مدينةٍ أصبحت مكان الإقامة الدائم للإمبراطور [للقيصر] فإنه لم يعد يكتفي بمثل هذا الوضع المتواضع. كرسي القسطنطينية انتهى إلى أن أصبح معترَفاً به كبطريركية، بعد تخطّي العديد من المراحل التي كانت تمرّ بالمجامع المقدَّسة، وقد أُطلق لقب البطريركية على الكراسي المتميِّزة والتي تكون أعلى من المدن الرئيسية (المتروبول) وذلك في المجمع المقدَّس الخلقدوني (Chalcédoine) عام 451م. وقد نال كرسي القدس التقدير عينه لأن المدينة كانت قد اعتُبرت العاصمة المسيحية للإمبراطورية منذ اكتشاف الصليب الحقيقي الذي ينسب

Twitter: @alqareah

إلى هيلانة (Hélène) والدة قسطنطين، وتعدُّد رحلات الحج إلى الأراضي المقدّسة. وهكذا فقد وضعت التراتبيَّة الكنسية بشكلها النهائي، والتي تعترف بتقدُّم الكراسي الخمسة. لقد أصبح هناك بعد اليوم تصوّران متعارضان لحكومة الكنيسة: الأول جماعي، يستند إلى الذين يحتلّون الكراسي الخمسة أو السلطة الخماسية (pentarchie)، أما الثاني فهو ملكي، يستند إلى سلطة فرد واحد، ويحوي ضمناً في طيّاته ضرورة تحديد الكرسي الذي سينتصر ويكون الأول، سواء أكان كرسي روما أم كرسي القسطنطينية.

أثارت ترقية كرسي القسطنطينية قلق بقية الكراسي الشرقية التي وجدت نفسها منذ نهاية القرن السادس الميلادي أمام واقع وجودها خاضعة لسلطته، لأن كل رجال الإكليروس في كل الإمبراطورية كانوا يستطيعون أن يعودوا في أمورهم إلى بطريرك روما الجديدة. كانت العلاقات بالبابوية في روما معقّدة، لأن الشرقيين كانوا على استعداد لأن يقبلوا منح كرسي روما أسبقية شرفية في حين أن البابوات كانوا يطالبون بأوّلية قانونية، أي بحقِّهم في أن يحكموا كمرجعية أخيرة في القضايا الخاصة بكل الكنائس. وكانوا يستندون في هذه المطالبة إلى كلمة المسيح حين أكّد لبطرس (Pierre) أول أسقف لروما «بأنه يبني كنيسته عليه». ولقد رفض بطاركة القسطنطينية هذه الحجّة الرسولية، على الرغم من أنهم قد أكّدوا في ما بعد أن كرسيَّهم قد أسّسه الرسول أندراوس (André) وهو «أول المدعوِّين» [أول مَنْ دعاهم المسيح ليكونوا تلاميذه]، وبالتالي فهو أقدم من بطرس. انطلاقاً من القرن السادس الميلادي زادوا إلى لقبهم السابق رئيس أساقفة القسطنطينية روما الجديدة صفة «المسكوني» «œcuménique» مظهرين بذلك رغبتهم في حكم كل الشرق، وقد أثار هذا القرار احتجاج البابوات الدائم وغير المجدي.

Twitter: @alqareah

إن بطريرك العاصمة يحكم بمساعدة المجمع الدائم المؤلف من أساقفة يقيمون بالعاصمة، ويحيط به عدد وافر من رجال الكهنوت الملحقين «بالكنيسة الكبرى» كنيسة آيا صوفيا. أما الإدارة فقد تشكَّلت تدريجياً وقد نقلت في جزء منها من النموذج الإمبراطوري، وكانت ترأسها في العصر الوسيط، مجموعة من الأرخنت archontes (المسؤولين الأوّلين) يتحمّلون أعباء المصالح الكبرى، رئيس دائرة الختم الرسولي chartophylax، وأمين دائرة الكنوز المقدّسة skeuophylax، والمدبر الاقتصادي، وأمين الخزانة (المسؤول المالي ثم في ما بعد مراقب الأديرة)... إلخ.

2 ـ **دور الأُسقف**: لقد تجمَّع المؤمنون الأوائل حول أساقفتهم، وقد تخطى هؤلاء فترات الاضطهاد، ولعبوا بعد سنة 313م دوراً متزايداً، ولحقوا في نهاية المطاف بالنخبة، وتحمّلوا أعباء مسؤوليات متزايدة، خصوصاً أنه قد أصبح من حقِّهم منذ ذلك الحين أن يكون لهم إرث يحتفظون به (ذمّة مالية). كانت هناك الهبات التقليدية التي يقدِّمها المؤمنون، وهي متواضعة، وقد أخذت تزداد بشكل كبير بسبب سخاء الإمبراطور [القيصر] وتبرّعات طبقة مجلس الشيوخ الأرستقراطية وهباتها. أصبحت الكنائس بعد ذلك غنية نظراً لأن ممتلكاتها لا تُمسّ، ولم تكن مؤسسات الأديرة بعدُ قادرة بالفعل على منافستها، لذا فإنها تملك الوسائل لتدفع للأساقفة رواتب كبار الموظفين الرسميين، الأمر الذي يجعل المنصب مغرياً ويثير منافسات تصل أحياناً إلى حدّ شراء كرسي، وهي ممارسة مُدانة وتؤدي إلى توظيف من هم من مستوى اجتماعي أعلى.

وزادت صلاحيات الأسقف في المدينة حيث أصبح يُحسب بين أهم أعيانها، وكان يساعده على عمله أمين صندوق، ويدير

Twitter: @alqareah

الاثنان ثروة البطريركية، ويوزّعان الحسنات إلى الفقراء المسجَّلين في سجلّات متجدِّدة، ويزوِّدان المؤسسات الخيرية التي تستقبل المسافرين وتُعنى بالمرضى والعجزة والأيتام بكل ما تحتاجه بالضرورة، ويساعدهما الإمبراطور [القيصر] على هذه المهمة، خصوصاً في العاصمة، بعد أن شاركت الثروة القديمة (منذ أجيال) للكنيسة في الأزمة المالية للبلديات ابتداءً من النصف الثاني للقرن السادس، ثم أكملت في ما بعد مؤسسات الأديرة هذه المهمة.

حين عزلت الاضطرابات الخارجية العديد من المدن وأضعفتها استعان الحكام بالأساقفة الذين لم يكن في الإمكان إقالتهم حسب القانون الكنسي، لكي يسدّوا فشل الإدارة المدنية في الإمبراطورية. وهكذا فإن رئيس أساقفة تسالونيكي يوحنا (Jean) شدّ من أزر روح المقاومة عند المواطنين ضد المهاجمين من الأوار والسلافيين في أوائل القرن السابع الميلادي. وفي سنة 626م كلّف الإمبراطور [القيصر] هرقل البطريرك سرجيوس (Serge) مهمة إنقاذ القسطنطينية من الهجوم المزدوج الفارسي والأواري. وقد تكرّرت الترسيمة نفسها في كل مرة كانت هناك أزمة توقف المسار الطبيعي للمؤسسات العامة في مواجهة السلافيين أو المعارضين المحليين أو الفرنك (الفرنجة)، وأخيراً الأتراك.

في الأصل كان المؤمنون في الأرياف المحرومون من كنيسة كاتدرائية، لا يعتمدون على مؤسسات خاصة، لم يكن القيِّمون عليها يحظون بعائدات تساوي عائدات رجال الإكليروس في المدينة، وقلَّما تميَّزوا عن جيرانهم العلمانيين؛ بالفعل فإن الكهنة (الخوارنة) كان يمكنهم الزواج، في حين كان المطارنة والأساقفة مجبرين على التخلّي عن ذلك وأن يبقوا في تبتُّلٍ تام، كما أنهم كانوا يمارسون

Twitter: @alqareah

في الغالب مهنة مثلهم مِثل رعيتهم. ولقد نافستهم في العصر الوسيط كنائس الأديرة التي تكاثرت في ذلك الزمان.

3 ـ **مكان الرهبان**: إن الرهبنة بشتى أشكالها النسكية أو الجماعية، قد ظهرت في مصر في القرن الثالث الميلادي، وانتشرت سريعاً في المقاطعاتِ المجاورة في فلسطين وسوريا، وأخذت عن أديرة العوسج في سيناء وعن دير القدِّيس سابا (Saint-Sabas) قرب المدينة المقدَّسة (القدس) أو دير القدِّيس سمعان (Saint-Syméon) قرب أنطاكية الذي أسس لاستقبال الحجاج، الذين كانوا يتدافعون جماهيرياً للاقتراب من أشهر العموديين [وهو القديس المعروف بسمعان العمودي الذي عاش في شمال سوريا]. إن الرهبان الذين سرعان ما كانوا يُعرفون من ثوبهم الأسود ـ الثوب «الملائكي» ـ الذي كانوا يرتدونه، أصبحوا سريعاً شعبيِّين جداً. وأفضل الرهبان الذين غالباً ما عُدُّوا بين القديسين، اعتُبروا كشفعاء فعالين بين اللّه وبين المؤمنين به. ولقد امتد تأثيرهم إلى كل أوجه الحياة الاجتماعية، فلقد كانوا يتدخلون بناءً على طلب القرويين، كما كانوا يتّصلون مباشرةً بالأباطرة (القياصرة) مع حرية توبيخهم التي كانت تمنحهم إياها أُلفتهم مع السماء.

لقد ساهم الرهبان بنشاط في الصراعات التي مزقت الكنيسة، وكان أنصار الطبيعة الواحدة (monophysites) يجدون أنصاراً لهم داخل الأديرة، وحين كانوا يُرسمون كهنة، كانوا ينافسون رجال الإكليروس النظاميين بأن يُرسموا أساقفة بل وحتى بطاركة. لقد دخلوا إلى بلاط القيصر كمرشدين روحيين للأرستقراطية العلمانية، وقد شارك بعضهم، كما حصل مع تيودوروس (Théodore)، المصلح الكبير لـ «ستوديوس» القسطنطينية في نهاية القرن الثامن الميلادي، في مجالس الإمبراطور. كان الأباطرة (القياصرة) يطلبون

Twitter: @alqareah

صلوات الرهبان من أجل إنجاح مشاريعهم. أما العلمانيون وعلى الأخص الأعيان فهم قد اعتادوا أن ينعزلوا في نهاية حياتهم في دير ويتركون له ممتلكاتهم أو قسماً منها. بعد قضية محاربة الأيقونات كسبت الأديرة، التي لم تتجمّع كما حدث في الغرب في رهبانيات مختلفة، ثروات مالية طائلة، ولقد أقلق حجمها مرّات عديدة الحكام، الذين حاولوا أن يحدّوا منها. وفي المقابل، فإن أديرة الراهبات حلّت محل الأباطرة (القياصرة) من أجل بناء المؤسسات الخيرية وتمويلها.

4 ـ **الإمبراطور [القيصر] في الكنيسة:** أيام الإمبراطورية الرومانية، كان الحاكم يقوم بوظيفة الحبر الأكبر، وكان هو نفسه موضع عبادة، لذا فقد كان يؤلّه بعد وفاته. إن اعتناق قسطنطين المسيحية غيّر كل شيء، حتى وإن كان التخلّي عن منصب الحَبْر لم يحصل إلاّ أيام حكم غراتيان (Gratien) بالمقابل، فإن قسطنطين كان الإمبراطور [القيصر] البيزنطي الوحيد ـ وطبعاً كان ذلك بعد وفاته ـ الذي اعتُبر قديساً، مفتتحاً بذلك تقليد العصر الوسيط بالملوك المكرَّسين قديسين لأنهم قادوا شعبهم إلى المعمودية، مهما كان تصرّفهم السابق. وفي حالة قسطنطين فقد غُفر له ميله المفترض إلى الهرطقة الأريوسية في نهاية حياته. إن هذا التقليد التقديسي الذي تُرك للأجيال القادمة يدين بالكثير لكتاب «حياة قسطنطين» الذي وضعه إيزبيوس (Eusèbe) أسقف قيصرية في فلسطين، ونُشر بعد فترة وجيزة من موت الإمبراطور، وقد عَظَّم طابع العناية الإلهية في اعتناق قسطنطين المسيحية، وأسس ما سيصبح المذهب الرسمي للعلاقات بين الإمبراطور [القيصر] وبين الكنيسة.

لم يكن قسطنطين يشعر بأنه قد تلقّى مهمة تحويل الوثنيين،

Twitter: @alqareah

وهم الغالبية الساحقة، إلى المسيحية حين تحوّل هو نحو المسيحية. على العكس من ذلك، فبعد رد الفعل القوي ليوليانوس (Julien) ـ الذي سمّاه المسيحيون المرتد لأنه عاد إلى الوثنية ـ فإن المسيحية حين أعلنها ثيودوسيوس (Théodose) دين الدولة، أصبح من واجب الأباطرة (القياصرة) نشر الإيمان المسيحي، على حساب بقية أديان الإمبراطورية، قاطعين بذلك الصلة بالتقليد الروماني بالتسامح.

لقد احتفظ اليهود، وهم عديدون في مدن الإمبراطورية، بحريّتهم الدينية، غير أن وضعهم ساء نظراً لأنهم مُنعوا من أي تبشير، وحُرموا من الخدمة العامة سواء أكانت مدنيّة أم عسكرية. ودعي المسيحيون إلى عدم ولوج أي كنيس يهودي، وألاّ يرتادوا البيوت اليهودية، لأن الكنيسة كانت تخشى من أن يتبنوا ممارسات يهودية، كأن يحتفلوا مثلاً بعيد الفصح بحسب تاريخهم، أو أن يتهوّدوا، وهذه كانت تهمة سهلة ضد كل خُصُوم «الأرثوذكسية». ولقد بقي اليهود بأعداد كبيرة في فلسطين، وقد عبّروا عن عدائهم باستقبالهم الفرس بسرور، ثم العرب بعد ذلك. ولقد فكّر القياصرة مرات عديدة، ولدوافع مختلفة في أن يُجبروا اليهود على اعتناق المسيحية، ولكن من دون التوصل إلى نتيجة مستديمة. وعدا لحظات التوتر هذه، عاشت المجموعات اليهودية بحسب شريعتها، من دون أن يزعجها أحد، حتى نهاية الإمبراطورية.

لقد أمر غراتيان وثيودوسيوس، وهذا الأخير بتحريض من أمبرواز (Ambroise) أسقف ميلانو، بإزالة تمثال النصر من مجلس الشيوخ الروماني. ثم جاءت سلسلة من القوانين منعت تقديم الذبائح، وكل عبادة الأصنام، وألغت الألعاب الأولَمپيَّة. والقاعدة كانت تحطيم أصنام الآلهة، غير أن المعابد أُغلقت ولكنها لم تهدم،

Twitter: @alqareah

إلاّ بمبادرة من إمبراطور [قيصر] مثل ثيودوسيوس الذي أمر بهدم معبد سارابيوم Sérapeum الإسكندرية، أو بسبب تطرُّف أسقف كما حدث مع فَرفوريوس في غزة. بعض المعابد حوّلت إلى استعمالات مدنية، وبعضها الآخر حوّل بعد فترة طويلة إلى كنائس، كما حصل مع الـ«برثينون Parthénon» الذي أصبح كنيسة العذراء في أثينا. وجد الوثنيون أنفسهم رويداً رويداً وقد أصبحوا أمام استحالة ممارستهم أي وظيفة عامة، وأخيراً، وفي عام 529م أَجبر يوستنيانوس آخر الباقين منهم على الاعتماد (التعميد)، بعد أن أعدم عدة أرستقراطيين من القسطنطينية الذين صودرت أموالهم. ولقد بقي بعض الوثنيين في نهاية القرن السادس. في الكتاب الآخَر من سلسلة «**ماذا أعرف؟**» المكرّس لبيزنطية، سنرى أن الثقافة الكلاسيكية، وهي وثنية في جوهرها، قد اقتبسها المؤلفون المسيحيون الذين جعلوها تراثهم وتبنّوها، إلاّ بعض الأصوات المخالفة.

5 ـ **تشكيل الأُرثوذكسية**: في إفريقيا، رفض الدونانيون [وهم أنصار دونا أسقف قرطاجة] أن يقبلوا في صفوفهم المسيحيين الذين ضعفوا أثناء فترة الاضطهادات، حين قبلوا أن يضحّوا للآلهة، فعارضوا بذلك غالبية الأساقفة الذين كانوا أكثر تسامحاً. وقد ذهب هؤلاء إلى قسطنطين لكي يناصر بسلطته السياسية المسيحيين الأُرثوذكس، من طريق دعوة الأساقفة كي يدينوا الهرطقة. ولم يتفحّص الإمبراطور [القيصر] جوهر القضية، بل سلّمها إلى أُسقف روما ثم إلى المجمع المحلّي في أرلر «Arles». إن هذا التدخّل للأمير في الشؤون الدينية يفسّره حرصه على وضع حدّ لاضطرابات في النظام العام، وكذلك التقليد الروماني الذي كان يمنح الإمبراطور [القيصر] مسؤوليات دينية.

Twitter: @alqareah

ولقد علم قسطنطين بأن منازعة أخطر تقسم المسيحيين وتتعلّق بطبيعة المسيح. فقد كان هناك كاهن من الإسكندرية يدعى أريوس (Arius) يقول إن المسيح المولود من الآب لم يكن من جوهر مساوٍ للآب، بل كان أقل منه. وفي عام 325م، وبناءً على نصائح أسقف قرطبة أوسيوس (Ossius) استدعى قسطنطين كل الأساقفة إلى نيقيا من أجل تحديد المذهب الصالح. هذا المجمع المسكوني الأول الذي ترأسه الإمبراطور [القيصر] شخصياً الذي لم يكن يتدخّل في المناقشات اللاهوتية، أدان الأريوسية، وثبّت سابقةً: أن المجمع لا يكون مسكونياً إنٍ لم يدعُ إليه الإمبراطور [القيصر] ويترأسه، وإن لم يجمع ممثّلين عن مختلف البطريركيات.

لم يفرض دستور الإيمان النيقوي نفسه مباشرةً، ولم تحل الأزمة الأريوسية قبل مجمع عام 381م، الذي عقد في القسطنطينية، فلقد أيَّد كونستانس (قسطنطينوس) ابن قسطنطين أنصار أريوس، وهذا ما خلق وضعاً لم تعرفه الكنيسة، إذ سمح ضغط الإمبراطور [القيصر] للأريوسيين الذين أدينوا في نيقيا، بأن يسيطروا على الكنيسة إلى حين وفاة الإمبراطور. لقد حدّدت حقوق الإمبراطور [القيصر] في الكنيسة تدريجياً، وليس من دون تردّد، أعتُرف له بحكم الكنيسة الأرضية، لأن اللّه قد أوكل إليه العالم الأرضي. ولم يعيّن أي بطريرك من دون الموافقة الصريحة للقيصر، وكان هذا يُختار من بين ثلاثة أسماء يختارها المجمع المقدس الذي كان يحرص دوماً على إبقاء اسم مرشح القيصر بينها، كذلك فإن كان هناك بطريرك موجود حين وفاة القيصر ومجيء قيصر خلفاً له ودخل في صراع مع السيِّد الجديد للإمبراطورية، كان هذا الاخير يجد دوماً أغلبية في المجمع لحمل البطريرك على الاستقالة أو لإقالته، وكان من المسلّم به أن من

Twitter: @alqareah

حقّ الإمبراطور [القيصر] أن يغيِّر في التنظيم الكنسي، بأن يرفع مثلاً مطرانية إلى رتبة متروبولية.

إن مشاركة الإمبراطور [القيصر] في تحديد العقيدة الدينية جوبهت منذ البداية بمقاومة شديدة، فقد كان من واجبه محاربة الهرطقة والمحافظة على وحدة المسيحية كلها، وباسم هذا الواجب حاول قياصرة من أمثال يوستنيانوس وهرقل وقسطنطين الخامس (Constantin V) وكذلك، ولكن في حدود أقل في عصر متأخِّر، مانويل كومنينس (Manuel Comnène) أن يفرضوا وجهات نظر عقائدية، وذلك دوماً بمساندة قسم من الإكليروس. ولقد واجه بعض رجال الدين هذا التدخل مباشرةً وحاربوه، غير أن البابا جيلاسيوس (Gélase, Gelasius) عام 491م حين لم تكن روما خاضعة لسلطة القسطنطينية المباشرة، هو الذي عبَّر عن نظرية السلطتين، السلطة الزمنية التي يمسك بها الإمبراطور، ولكن عليها مع ذلك أن تنحني أمام السلطة المقدَّسة للأحبار. تبنّى بعض بطاركة القسطنطينية مثل فوتيوس (Phôtios) قول جيلاسيوس، وكذلك أحد الأباطرة الذي توصّل إلى الحكم بعملية اغتصاب دموية، هو يوحنا تزيميسكس (Jean Tzimiskès). إن العلاقات بين الإمبراطور [القيصر] وبين الكنيسة الرومانية أو كنيسة القسطنطينية كانت تحدِّدها في غالب الأحيان موازين القوى والظروف السياسية.

لم تتوقف المشاحنات حول المسيح مع فشل الأريوسية، وقد تناولت طبيعة المسيح البشرية والإلٰهية معاً، ولم تكن تغطّي فقط رهانات لاهوتية بل سياسية كذلك. إن النساطرة الذين شدّدوا على طبيعة المسيح البشرية في شخص المسيح إلى درجة تهديد وحدة المسيح، ورفضوا إعطاء العذراء (مريم) لقب أم اللّٰه

Twitter: @alqareah

(ثيوثوكوس Théotokos: والدة الإلٰه)، أدانهم مجمع أفسس عام 431م. كان عدد النساطرة قليلاً في شتى أنحاء الإمبراطورية، إلاّ أنهم عرفوا نجاحاً كبيراً في بلاد فارس التي اضطهد حكّامها المسيحيين، ولكنهم انتهوا إلى أن قبلوا بالتسامح نحوهم، خصوصاً أن معظم هؤلاء كانوا من النساطرة، بالتالي لم يكونوا يدينون بالولاء لكنيسة القسطنطينية الرسمية.

لقد كان كيريلوس (Cyrille) مرشد كنيسة الإسكندرية، وقد قاد الحملة ضد نوستوريوس (Nestorius)، واتخذ موقفاً يقود إلى التشديد على وحدة المسيح: لم يعد هناك من تمييز واضح بين الطبيعتين إلى درجة أن الطبيعة البشرية للمسيح كانت مهدَدة بالاختفاء. إن القول بالطبيعة الواحدة (مونوفيسيزم monophysisme) أُدين بدوره في المجمع الخلقدوني عام 451م، وقد ساهم فيه بشكل فعال البابا ليون (Léon). إن مبدأ الطبيعتين (dyophysite) الذي أُقرَّ اعترف بأن المسيح هو في الوقت عينه إنسان تام وإلٰه تام. إلاّ أن المشكلة لم تُحلّ لأن أنصار الطبيعة الواحدة، وقد أصبحوا هراطقة في نظر الخلقدونيين، احتفظوا بمواقع قوية في مصر وسوريا.

ليس من الظلم إذن أن نعتبر قسطنطين المؤسِّس للإمبراطورية البيزنطية، حتى وإن كان مثل هذا التأكيد لا يأخذ بعين الاعتبار عناصر الاستمرارية التي حصلت مع الإصلاحات العسكرية والإدارية التي قام بها أورليانوس وديوكليتيانوس (Aurélien et Dioclétien)، فقسطنطين، وهو الغربي، أعاد بناء الشرق حين زوّده بعاصمة اختير موقعها بعناية فائقة، ويمكنه الدفاع عنها بشكل رائع، وضمن بتصرفه هذا الخلاص المستقبلي للإمبراطورية. أخيراً فإنه قدّم مثلاً يُرجع إليه للإمبراطور

Twitter: @alqareah

[للقيصر] المسيحي الجيِّد المهتم بوحدة كل المؤمنين.

ولقد قسمت الإمبراطورية خلال القرن الرابع الميلادي بين عدّة أباطرة، وهكذا فإن ثيودوسيوس لم يأت بجديد حين ترك عند مماته عام 395م ابنه هونوريوس (Honorius) في رافينا «Ravenne» [إيطاليا] وابنه الثاني أركاديوس (Arcadius) في القسطنطينية. لم يشعر الناس في حينه بأن الانفصال لا رجوع عنه، إلاّ أنه في الواقع أصبح نهائياً رغم أن المثل الأعلى في وحدة قسمَي إمبراطورية كونية لم يتلاشَ على الإطلاق.

استفادت إمبراطورية الشرق، في القرن الخامس من ظروف اقتصادية مؤاتية كي تحافظ على مستوى عالٍ من السكان، بالتالي على موارد تسمح بتجنّب الهجومات البربرية، بعد دفع الثمن. ولقد هدّد البرابرة لفترة مؤقّتة بشكل جدّي بلاد البلقان، حين ذبح الجنود القوط جيشاً رومانياً وقتلوا الإمبراطور [القيصر] فالنس (Valens) عام 376م في مدينة أندرينوبولي «Andrinople» [أَدَرَنَة في تركيا اليوم]. ولقد اتخذ أباطرة القسطنطينية مرّات عديدة زملاءهم في رافينا، إلاّ أنّهم لم يستطيعوا عام 476م إنقاذ آخر إمبراطور [قيصر] في الغرب من عزل إدواكر (Odoacre) له. بعد ذلك التاريخ بقي في الحكم في القسطنطينية الإمبراطور [القيصر] الوحيد للرومان. وباسم هذا الإمبراطور [القيصر] ذهب رئيس جيوش الأستروقوط ثيودوريك (Théodoric) إلى إيطاليا ليطرد إدواكر. واغتنم الإمبراطور [القيصر] أناستازيوس (Anastase) هدوءاً نسبياً على الحدود، وكان هو موظفاً سابقاً في المالية، فجنى الضرائب بطريقة أفضل، وراقب النفقات، وهذا مكّنه من أن يترك لخليفتيه المباشرين يوستينوس وابن أخيه يوستنيانوس احتياطاً كبيراً من الذهب، وإمبراطورية مزدهرة وعامرة بالسكان.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل الثاني

نشأة الدولة الوسيطية

(718-527)

قد يندهش القارئ عن حق بأننا وضعنا عهد يوستنيانوس ضمن فصل مكرّس بشكل أساسي لتراجع الإمبراطورية إلى حدودها في العصر الوسيط. في الواقع علينا الأخذ بعين الاعتبار الشارات التي تعلن عن المصائب المقبلة، والتي كانت كامنة أثناء حكمه: لقد بدأ زمن التقهقر الديمغرافي، فمدن كبيرة مثل أَنطاكية بدأت في التراجع، أما النخبة المحلِّية التقليدية فآلت إلى الهبوط، في حين أن الغزو وصل إلى دول البلقان، والتوسّع في الأراضي يعلن عن صعوبة الدفاع عن حدود تمدّدت بشكل مبالغ فيه. ولقد جرّب يوستنيانوس كذلك حلولاً مستقبلية على الصعيد الإداري معطياً لبعض الحكّام سلطات مدنية وعسكرية مخالفاً التقليد الذي كان يحرص دوماً على إقامة فصل واضح للصلاحيات.

I ـ التغييرات الاقتصادية والاجتماعية

1 ـ **عودة الطاعون ونتائجه**: لقد غاب الطاعون عن عالم البحر المتوسط منذ القرن الثاني الميلادي، وعاد ليظهر ويضرب عام 542م

Twitter: @alqareah

بشكل مفاجئ القسطنطينية. إن صدّقنا بروكوب (Procope) فإنه أثناء الفترة الأقوى لانتشار الوباء، كان هناك آلاف الضحايا كل يوم. إن نتائج الوباء مدعاة للمناقشة لأن النصوص المكتوبة حول الموضوع لا تعطينا سوى القليل من المعلومات، ولكننا حين نأخذ معاً مفاعيل أوبئة الطاعون والاضطرابات التي خلّفتها الحروب، فإننا نجمع على أن سكان الإمبراطورية الذين كان عددهم يزيد بدون شك على العشرين مليون أثناء حكم يوستنيانوس، قد نقص بشكل ملحوظ في القرون التالية. وهذا الهبوط انعكس على التطوّع في الجيش، وعلى إعمار المدن، وعلى حدّة التبادلات.

2 ـ **الأرياف**: إن ازدهار الأرياف يضمن ازدهار الإمبراطورية ومدنها، لأن الفلاحين يعطون، بحسب تقديرٍ إجمالي مشروط، ما بين ربع محصولهم وثلثه للضرائب، وربما أكثر من ذلك بالنسبة إلى مصر الغنيّة، وهذه النسبة تغيَّرت خلال العصور، ولكنها لم تخرج عن هذا المعدّل الوسطي. تتطلّب الزراعة وجود سواعد عديدة، وهذا ما كان متحقِّقاً إلى حين حكم يوستنيانوس. إن التطوّر الزراعي في الريف يتوقف على الأحوال الطبيعية، وهي غير متساوية من مكان إلى آخر. فإلى جانب إهراءات معروفة للقمح وهي مصر وإفريقيا وصقلية، وإقليم آسيا فإن الزراعة المتعددة كانت سائدة في تراس «Thrace» وبتينيا «Bithynie» وسوريا حيث سمحت زراعة الزيتون بتصدير الزيت، في حين أن هضبة الأناضول وضفافها كانت صالحة لتربية المواشي. أما نسبة النمو فقد كانت تتغيَّر حسب كل إقليم. ففي شمال سوريا حيث لا يزال العديد من القرى البيزنطية التي بُنيت بالحجر الكلسي قائمة حتى اليوم بشكل جزئي، فمن الممكن متابعة التطوّر الاقتصادي لمنطقة ريفية قريبة من مدينة كبيرة هي أَنطاكية. إننا نلاحظ أن الريف في شمال سوريا لم يكن مأهولاً ومنتجاً في يوم من الأيام كما كان في

Twitter: @alqareah

النصف الأول من القرن السادس الميلادي، حيث تضاعف السكّان منذ مطلع القرن الرابع الميلادي. ثم نرى أنه عرف ركوداً على مستوى عالٍ قبل أن يبدأ هبوطاً استمر عدّة قرون، من دون أن يؤثّر الفتح العربي سلباً بشكل معبِّر. أما في مناطق الإمبراطورية الأخرى فإن الأبحاث حول اللّقاح تبرهن عن وجود تراجع في الأنواع الحرجية وزيادة في النباتات المزروعة حتى القرن السادس الميلادي، ثم يتبع ذلك انقلاب واضح لهذا الاتجاه مدّة قرون عديدة، وهذا يشهد على وجود تراجع في الإنتاج الزراعي.

3 ـ **انحطاط المدن**: بقيت الصناعة اليدويّة نشطة جداً في القرن السادس الميلادي، حتى خارج القسطنطينية. لقد حفظت لنا النقوش الكتابية التي اكتشفت صدفة المئات من التسجيلات على القبور في كوريكوس «Korykos»، وهي ميناء كيليكيا «Cilicie»، حيث يظهر العديد من المهن المتنوعة الخاصة بالفم أو بتطرية الجلود، أو العطّارين وتجّار الزيوت والخمر وأصحاب الحانات والفنادق، وتظهر كذلك مهنتان منتظمتان برابطات نقابية، مهنة الصرافين وتجّار الكتان. إننا نجد هذه المهن عينها مذكورة في نقوش صور، وهي مرفأ كبير في الشرق، تضاف إليها حِرَف الصباغ الأُرجواني وصناعة الزجاج. ونجد مهن البناء في كل الإمبراطورية، وفي مهن مرتبطة بمجهود إقامة المنشآت الدفاعية، وكذلك بتشييد الكنائس التي لا تزال آثارها حاضرة في كل التجمّعات السكنيّة. أما نظام بروكونيز Proconnèse فقد استُغل من أجل الأبنية الفخمة، وكانت إلى جانبه المقالع المحلِّية للاستعمال الأقل أهمية. أما الفسيفسائيون فكانوا يجدون لأنفسهم شغلاً في العديد من ورشات العمل في القسطنطينية، وفي رافينا «Ravenne» وفي سوريا وفلسطين. أما المدن الكبرى فكانت تحتضن الأعمال اليدوية الفاخرة التي يقوم بها الصّاغة ونحّاتو العاج وحائكو الحرير.

Twitter: @alqareah

أخذ الأعيان المحليّون يساهمون أقل فأقل في تجميل مدنهم، فقام الأساقفة مكانهم في هذا العمل، فأشادوا العديد من الكنائس. أما محبّة البشر التي تحوّلت إلى عمل الخير فلم تعد تتوجّه إلى الحلقة الصغيرة من المواطنين الفقراء فقط، بل توسّعت بحسب وصايا «الإنجيل»، لتشمل الفلاحين الذين غادروا أرضهم كي يجرّبوا حظّهم في المدن وعلى رأسها العاصمة التي تمركزت فيها المؤسسات الخيرية. وأصبح الإمبراطور [القيصر] أول المحسنين، لأنه وحده يملك الوسائل الكافية.

ولقد تميّز يوستنيانوس في هذا الدور المزدوج للباني والمحسن، وبعد أن كادت حركة العصيان المسماة نيكا Nika (النصر) والتي قام بها بعض زمر الأحزاب أن تطيح به عام 532م، أعاد بناء كنيسة آيا صوفيا (أي كنيسة الحكمة المقدّسة) ببذخ يرمز إلى العلاقات بين الإمبراطور [القيصر] المسيحي وبين اللّه ويعلن هيبة الإمبراطورية. إن الجرأة في الخطة الموضوعة تشهد للمستوى العلمي العالي الذي كان يتمتع به مهندسا ذلك العصر، أنتيميوس التريلسي (Anthémios de Tralles) وأزيودوروس الملطي (Isidore de Milet). ولقد شُيّدت أو رُممت عدة كنائس أخرى في العاصمة أو في ضاحيتها، كنيسة القدّيسة مريم بلاشيرن (Sainte-Marie de Blachernes) التي بقيت طيلة العصر الوسيط الكنيسة الرئيسية المكرّسة للعذراء مريم، كنيسة القدّيسة أرينيا (Sainte-Irène)، كنيسة مارميخائيل في أنابلس (Saint-Michel d'Anaplous). أما في الأقاليم فقد أمر الإمبراطور [القيصر] على الأخص ببناء كنيسة القدّيسة مريم الجديدة في القدس، ودير العوسج في سيناء الذي اتخذ في ما بعد اسم دير القدّيسة كاترين (Sainte-Catherine). وقد رمّم كنيسة القدّيس يوحنا

Twitter: @alqareah

في أفسس (Saint-Jean d'Éphèse)، وأرسل الأموال مرات عديدة من أجل إعادة بناء أَنطاكية، خصوصاً بعد زلزال عام 526م. ولم يهمل الحدود فشاد أو أصلح الأسوار والقلاع بأعداد كبيرة. أما الذين خلفوه فلم يستطيعوا أن يجاروه لذا فإن ذكر الأشغال العامة يصبح نادراً، انطلاقاً من عهد هِرقل (هيراكليوس).

إن نخبة البلديات أو الكهنوت التي حكمت المدن منذ أقدم العصور تلاشت تدريجياً لصالح موظفي الدولة. ولم يعد توزيع الضرائب وتحصيلها مسألة تخص المدن، بل عهد بذلك إلى الخازن أو الجينيكون génikon، وهو لقب يعادل في العصر الوسيط البيزنطي وزير المالية في عصرنا الحديث. أما كبار مالكي الأراضي فلم يقيموا بأملاكهم، مفضّلين الإقامة بالمدن لأنها كانت تقدم لهم حماية أفضل.

4 ـ **انخفاض التبادلات**: إن معرفتنا بالنقل البحري قد تحسّنت بشكل ملحوظ بفضل علم الخزفيات، وهو علم أتاح لنا التعرّف إلى المشاغل حيث كانت تصنع القوارير الخاصة بنقل القمح أو الزيت أو الخمر على البواخر ومعرفة محتواها وتأريخ إنتاجها. كانت القوارير الآتية من سوريا وفلسطين والتي تحوي الخمر والزيت تتجمّع في قرطاجة. إن الخزف الإفريقي الخاص بالمائدة موجود في القسطنطينية وفي آسيا الصغرى وفي جنوب اليونان... وفي القرن السادس الميلادي وضع يوستنيانوس موضع التنفيذ برنامجاً يهدف إلى الاستعاضة عن استيراد البضائع الحريرية الآتية من بلاد فارس ومن الشرق الأقصى بإنتاج محلّي قائم على تربية شرانق دود القز داخل الإمبراطورية عينها. كانت السفن البيزنطية تجوب كل البحر المتوسط وتسيطر على البحر الأحمر، بل إنها كانت تغامر بالوصول إلى مقاطعة بريتاني

Twitter: @alqareah

(Bretagne) [في غرب فرنسا] للبحث عن القصدير. هناك أدلّة على أن تجّاراً سوريين نزلوا في ميناء مارسيليا قد وجدوا في غاليا [فرنسا] الميروفنجية (mérovingienne)، وأن نبيذ غزة قد وصل إلى بلاط ملك الفرنك (الفرنجة)، وكذلك وصلت معه المنتوجات الحريرية والرَّقُّ البَرْدِيّ (papyrus). كان الذهب البيزنطي يدخل دوماً إلى الغرب البربري. ثم إن النقل بكثافة للقمح المصري نحو العاصمة قد جرّ معه إقامة الإهراءات والمنشآت الضخمة في الموانئ. غير أن متوسط حمولة السفن قد نقص بلا شك منذ عصر قسطنطين، وهذا إشارة إلى أن تراجع التجارة البحرية كان ملحوظاً، وفي الوقت عينه ازدادت حركة التبادلات المحلية.

إن اللوحة الإجمالية ستتغيّر كثيراً في القرن التالي. فالمدن القليلة السكان أصبحت مدن مشوّهة، بُنيت أسوارها من بقايا الأبنية القديمة المهجورة منذ فترة طويلة أو المسارح أو المعابد أو الحمامات، ولكن بطريقة منتظمة، مما يعني وجود سلطة نظامية تتدخل. كانت الأسوار تضم مساحات متقلّصة (في أنقير «Ancyre» وأفسس وميلاط «Milet» وسارد «Sardes» وبرغامي «Pergame»، على سبيل المثال فقط)، ولم يعد السكان بحاجة إلى استيراد كميّات كبيرة من البضاعة فاكتفوا بما ينتجه من كانوا بجوارهم المباشر. وتوقفت المحاصيل السنوية المصرية عن الوصول إلى القسطنطينية عام 618م، فحصل نقص حاد في التموين، ولكنه كان عابراً، مما يعني أن السكان قد نقصوا بشكل ملحوظ. أما الشغب في المدينة، الذي كان جلياً في القرنين الخامس والسادس، حين كانت جماهير غفيرة من العاطلين عن العمل تستجيب لدعوات رؤساء الأحزاب، التي لم تكن دوماً سياسية أو دينية، فإنها اختفت بعد هرقل لأنه لم يعد هناك مقاتلون.

أضف إلى ذلك أن الأمن لم يعد قائماً في الطرق البحرية

Twitter: @alqareah

منذ أن بدأت الزوارق السلافية الخفيفة (المصنوعة من قطعة خشب واحدة monoxyles) تجوب بحر إيجة، وعلى الأخص منذ ظهور بحرية مسلمة جعلت من المناطق الساحلية، حيث كانت تتمركز في السابق أكبر المدن، منطقةَ نفور. إن تحويل الاقتصاد إلى قضية نقدية حافظ على سعر مرتفع للنقد يتراجع الآن لأن الاحتياطي النقدي أُثقل بالديون بسبب الجزية المدفوعة للمحتلّين، والنفقات الحربية وخسارة المقاطعات الأغنى. إن التبادلات بين جزءَي البحر المتوسط لم تختفِ كليّةً، إلاّ أنها أصبحت ظرفية ومحصورة في المصنوعات الثمينة. هناك معاهدة وقّعت عام 716م تنظم التجارة مع البلغار تنصّ على أنها تتوقّع تدفّقاً سنوياً يصل إلى 50 ليبرة ذهبية سنوياً، وهذا بالطبع مبلغ زهيد جداً.

إن مراقبة النشاط التجاري تسمح لنا بأن نؤكِّد أن الانهيار سابق على مجيء العرب، الذي لم يكن له تأثير مباشر على اقتصاد البحر المتوسط، وهذا ما يدعونا إلى الرفض الجزئي للأطروحة الشهيرة لهنري بيرين (Henry Pirenne)، التي ربطت القطيعة التي حصلت في التجارة عبر المتوسط بالفتح العربي، فلقد كانت الجيوش الفارسية قد دمرت بشكل خطير آسيا الصغرى منذ عهد هرقل. تبقى هناك مسألة سجالية: إلى أي مدى يعكس وضع المدن حال الأرياف، التي تتأثر مباشرةً أقل بكثير من المدن من جرّاء الحصارات والعمليات العسكرية المختلفة؟ استطاعت المبادلات أن تتابع طريقها ولكن بصورة مقايضة، وهذه لا تترك أثراً بين المستندات. إن لم يكن الأمر كذلك فإننا لا نفهم كيف استطاعت الإمبراطورية أن تعيد تنظيم جيوشها وأن تطوّعها وأن تطعمها، حتى وإن كانوا ولمدة طويلة، كما هو بيّن، أقل عدداً في مواجهة المسلمين.

Twitter: @alqareah

II ـ إمبراطورية مرسومة من جديد

1 ـ إعادة تشكيل الإمبراطورية الرومانية؟ حين دشّن يوستنيانوس عهده عام 527م كان برنامجه الطموح إلى التجديد يفترض به أن يعمل في آنٍ معاً على مستوى المؤسسات وعلى مستوى السياسة الخارجية.

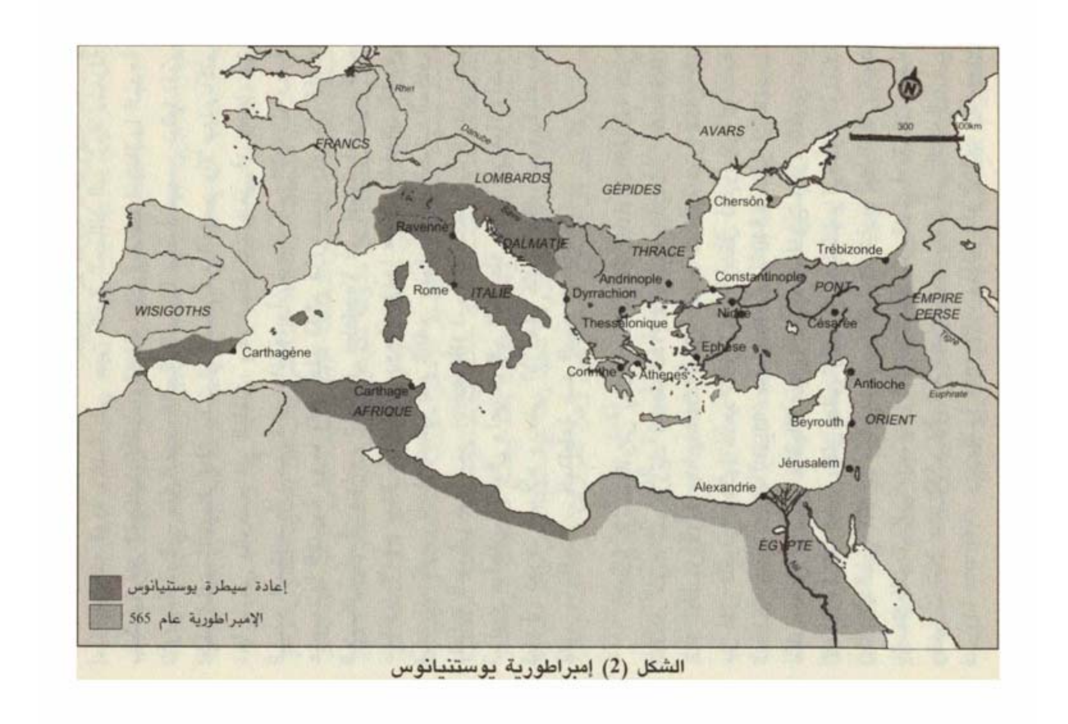
كان التجديد renovatio الداخلي يمر عبر تجديد القانون، وهو ميدان يختص بامتياز بسلطة الإمبراطور. على الرغم من نشر المدونات السابقة مثل مدوّنة ثيودوسيوس Code Théodosien فإن القانون الروماني كان يشكّل مجموعة معقّدة وغير متجانسة في قسم منها، بسبب المناشير الإمبراطورية المتعدّدة وتأويلها المختلف عند المشترعين. جمع يوستنيانوس لجنة ترأسها تريبونيان Tribonien، وقد توصّلت بعد بضع سنوات إلى نشر المدوّنة اليوستنيانية المعروفة بمجموعة يوستنيانوس وهي عبارة عن توليفة من كل شروح المشترعين ومن القرارات، وتشكّل موجزاً موضوعاً تحت تصرّف الطلبة. ولقد أكمل يوستنيانوس مدوّنته بأخبار ملحقة نشرت غالبيتها ولأول مرة باللغة اليونانية. ولقد استمر القانون المحلّي ساري المفعول في الأقاليم. إن مجد يوستنيانوس يدين كثيراً لعمله الحقوقي الذي استعمل كأساس في المدوّنات اللاحقة مثل المختارات (Ecloga) عند الأيصوريّين (Isauriens) والملكيّات (Basiliques) عند المقدونيّين، واكتُشف هذا العمل لاحقاً في إيطاليا في القرن الحادي عشر فهيّأ تطوّر القانون الغربي الحديث. أخيراً نلمس تأثير المسيحية في التشريع، فإن كان هناك تشديد في شروط الطلاق إلاّ أن مصير الزوجة والأولاد قد تحسّن بالنسبة إلى حقوق الزوج والأب. وكذلك فقد خُفّفت العقوبات الجسدية، وشُجّعت عملية تحرير العبيد.

Twitter: @alqareah

حين قرّر يوستنيانوس البدء بالهجوم في الغرب كانت إمبراطوريته قوية وغنية، في حين كانت الممالك البربرية منعزلةً بعضها عن بعضها الآخر، وقد ضعفت بسبب اعتناقها البدعة الآريوسية، في حين بقيت غالبية شعوبها مؤيِّدةً مجمع نيقيا. قرّر الإمبراطور [القيصر] أن يشتري السلم مع الفرس وألاّ يهتم أكثر مما ينبغي بالوضع في البلقان، وهو بهذا كان يبغي أن يجعل من البحر المتوسط بحيرة رومانية، وأن يعيد إلى الإمبراطورية عاصمتها القديمة روما وفي عام 533م قرّر، ضد رأي كل قادته العسكريّين، أن يهاجم الفاندال Vandales في إفريقيا، وهم قوم مهابون لأنهم سبق أن نهبوا روما، وردّوا هجوم الجيش القوي لباسيليسكوس (Basiliskos) عام 468م. ونزل القائد الشاب المكلّف بقيادة الجيش بيليسير (Bélisaire) قرب قرطاجة، وأزال في عدّة أسابيع سلطان الفاندال وأعيدت إلى الخارطة ولاية أفريقيا، ولكنها قبل أن تعرف السلام وبعض الازدهار كانت هناك ضرورة لعودة عقود من الحروب المتقطّعة ضد البربر (Berbères).

تشجَّع يوستنيانوس بهذا النصر وبالانقسامات العائلية التي أعقبت موت ثيودوريك (Théodoric) فأرسل بيليسير (Bélisaire) ضد الأستروقوط Ostrogoths. احتل القائد صقلية دون قتال، ثم مرّ على نابولي ومنها صعد نحو روما، ودخل أخيراً إلى عاصمة المملكة وهي مدينة رافينا «Ravenne» عام 540م. غير أن الحرب طالت بفعل فوضى عرفها الجيش بسبب الطاعون والرد القوي من الأستروقوط الذين كان على رأسهم رئيسهم الجديد توتيلا (Totila) الذي كاد أن يلقي بالبيزنطيين خارج إيطاليا. وعهد يوستنيانوس إلى نرسيس (Narsès) بجيش قوي استعاد روما، وقهر توتيلا عام 552م وأسقط آخر التحصينات في الشمال، في فيرونا «Vérone» وبريشيا «Brescia»، وذلك عام 562م. وبفضل

Twitter: @alqareah



الشكل (2) إمبراطورية يوستنيانوس

Twitter: @alqareah

«العقاب البرغماتي» أعاد يوستنيانوس تنظيم ولاية إيطاليا، وضمن حرية أعضاء مجلس الشيوخ وممتلكاتهم ووعد بألاّ يفرض ضرائب باهظة.

أضف إلى ذلك أن البيزنطيين أنزلوا جيشاً صغيراً استقر ببيتيكا «Bétique» [الأندلس اليوم] في جنوبي شرق المملكة، وذلك بعد قيام تمرّد ضد ملك الفيزيقوط أجيلا (Wisigoth Agila).

لقد أُلقي باللوم غالباً على سياسة يوستنيانوس، وظن البعض أن الإمبراطور [القيصر] كان ينوي إعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية في كل أُبَّهتها، كما كانت أيام أوغسطس، وبشكل محسوس أكثر لقد اتُّهم القيصر بأنه مدَّد حدود الإمبراطورية، في حين أن الوسائل المالية ونقص الرجال كانت تحدّ من توسع الجيش الروماني، الذي كان يصل في أكبر التقديرات عام 600م إلى 150000 رجل. مثل هذه الانتقادات لها ما يبرّرها، غير أن يوستنيانوس الذي كانت تملأ نفسه بلا شك عظمة روما القديمة، كانت له على ما يبدو أهداف محدودة. وهكذا فإنه بالنسبة إلى الفرنك (الفرنجة) اكتفى بسياسة تحالف. أضف إلى ذلك أنه حين بدأ فتوحاته لم يكن يتوقّع طاعون عام 542م ونتائجه الديمغرافية والاقتصادية. ما كان غير متوقَّع هو مقاومة القوط، التي تسبّبت بحصول تدمير خطير في إيطاليا التي كانت قد نجت إلى حدّ بعيد من الغزوات الجرمانية، وقد أسفر عنها تحويل روما إلى مدينة في المقاطعات لا يزيد عدد سكانها عن 30000 نسمة. أخيراً، فإن إعادة توازن الإمبراطورية نحو الغرب أمدّها بموارد أفريقيا وصقلية التي كانت ثمينة جداً، حين كاد أول الهجومات العربية يُذهب بكل شيء.

2 ـ **وحدة المسيحيين المستحيلة**: منذ مجمع خلقيدونيا

Twitter: @alqareah

(Chalcédoine)(*) لم تقم الوحدة المسيحية من جديد على الإطلاق. إن الفتح اليوستنيانوسي قد ازال عملياً الأريوسية، إلاّ أن أنصار الطبيعة الواحدة احتفظوا بمواقعهم القوية في سوريا وفي مصر، وقد نال هذا المذهب تعاطف القيصر انستازيوس (Anastase) والإمبراطورة ثيودورة (Théodora) زوجة يوستنيانوس. فهذه استقبلت في أحد قصورها في العاصمة عدداً كبيراً من الرهبان المؤيّدين مبدأ الطبيعة الواحدة، وقد حمت يوحنا الأفسسي أحد دعاتهم الذي جاب بنجاح كل طرق آسيا الصغرى. كان زوجها خلقيدونياً مقتنعاً كل الاقتناع بذلك، إلاّ أنه حاول أن يجذب إليه تأييد أنصار مذهب الطبيعة الواحدة، واعتقد أنه قد وجد الوسيلة حين أدان بمنشورات صدرت عنه ثلاثة نصوص يعتقد أنها نسطورية، غير أن البابا فيجيليوس (Vigilius, Vigile) رفض هذه المناورة؛ ولقد ساندته الكنيسة الغربية. استدعي إلى القسطنطينية وحجز فيها وانتهى الأمر به قبل أن يموت إلى الموافقة على قرارات المجمع المسكوني الخامس الذي أدان «الفصول الثلاثة». وعلى الرغم من ضغط القيصر إلاّ أن الكنيسة اللاتينية رفضت هذا التنازل. إن هذه المشاجرة العقائدية هي خير مثال على الإحراج الذي كان القياصرة يجدون أنفسهم فيه، فمن أجل كسب تحالف المقاطعات الشرقية الحيوية للإمبراطورية كانوا يخاطرون بأن يكسبوا عداوة المسيحية اللاتينية. وقد فشل الإمبراطور [القيصر

(*) مجمع كنسي مسكوني هو الرابع، عقد عام 451م في مدينة خلقدونيا الواقعة على ضفاف البوسفور قرب اسطنبول التي كانت تدعى في ذلك الحين بيزنطية أو القسطنطينية، وقد أدان مذهب الطبيعة الواحدة في المسيح. (المترجم).

Twitter: @alqareah

في الشرق كذلك لأن العرب الغساسنة الذين كانوا يحرسون الحدود السورية للإمبراطورية شجّعوا أنصار الطبيعة الواحدة، فأقام هؤلاء تراتبية كنسية موازية وذلك تحت تأثير راهب اسمه يعقوب البرادعي، وأقاموا بالتالي كنيسة منافسة في سوريا سمّيت اليعقوبية باسم مؤسّسها. ومنعت السلطات الأساقفة اليعاقبة من دخول المدن فلجأ هؤلاء إلى الأديرة. ونشب صراع قوي بين الكنيستين. ولكي يقفوا في وجه أنصار الطبيعة الواحدة الذين استولوا على أشهر معبد سوري وهو مزار القدّيس سمعان العمودي (Saint-Syméon stylite) أقام الخلقيدونيون عبادة سمعان عمودي آخر، الذي أشاد ديراً بالاسم نفسه على الجبل المدهش في الطريق بين أنطاكية وسلجوقيا «Séleucie».

III ـ صدمة الغزوات

منذ منتصف القرن السادس بدأت شعوب السُهب (Steppe) في التحرك محدثةً سلسلة من الهجرات أدّت إلى موجة جديدة من الغزوات، هي غزوات اللومبَرديّين والسلاف والأوار والبلغار، وذلك في اللحظة نفسها التي تحطّم فيها، في الشرق، التوازن التقليدي بين القوّتين العظيمتين الدائمتين روما وفارس. نتج عن هذه الظروف الصعبة صياغة المؤسسات الرومانية، وكانت الإشارة السابقة المعلنة عن ذلك إنشاء أكسَرخسية [حكومة عسكرية]، منذ نهاية القرن السادس في إفريقيا، وأخرى في رافينا، وهما مقاطعتان بعيدتان عن القسطنطينية تخضعان باستمرار لضغط البرابرة المستمر على الحدود، ومن هنا كانت الحاجة إلى قيادة ذات صلاحيّات مدنية وعسكرية واسعة، قادرة على أخذ زمام المبادرة بسرعة في وجه الأعداء.

Twitter: @alqareah

1 ـ **إيطاليا**: لقد شكّل اللومبَرديّون جزءاً من الجيش الذي احتل إيطاليا لحساب يوستنيانوس، ومنذ عام 568م اجتاحوا شبه الجزيرة التي كان يعرفها الكثيرون منهم. واستقرّوا سريعاً بسهل بو «Pô» ثم نجحوا في خلق إمارة سبوليتي «Spolète» وبينيفنتي «Bénévent» محطّمين بذلك وحدة إيطاليا البيزنطية التي كانت منظّمة حول قطبين، أكسرخسية رافينا التي كانت تضم روما، وصقلية وعلى جانبها كالبريا «Calabre» وبوليا «Pouille». ولقد توقّف التقدّم اللومبَردي بسبب ضعف النظام الملكي واختيار المذهب الأريوسي الذي كان ينفر السلطات الكنسية والنخب المحليّة، ولكن ولمّا كان الأباطرة [القياصرة] عاجزين عن إرسال الإمدادات لأنهم كانوا يحتاجون إليها كثيراً في الشرق، تقدّم اللومبَرديّون في شمال إيطاليا التي أخضعوها تدريجياً، إلاّ البندقية، وهي مدينة لاجئين أقيمت على مجموعة جزر.

إن طبقة الأشراف تمزّقت أثناء اضطرابات القرن السادس الميلادي، وبرزت كوادر جديدة من صفوف الجيش الذي كان يتشكّل بشكل واسع من الناس المحليّين، وهذا تطوّر يفكك الروابط مع الجزء الشرقي من الإمبراطورية. إن الإمدادات الوحيدة الآتية من الشرق كانت تصاحب الحكّام العسكريين لمقاطعة رافينا، حين كانوا يأتون لتولّي وظائفهم. وأخذ الزعماء المحليّون استقلالهم رويداً رويداً في نابولي والبندقية وحتى في روما، من دون أن يقطعوا صلتهم بالقسطنطينية التي استمرّت بمنحهم الألقاب البلاطية.

لقد وفّرت إعادة الفتح صقلية فاحتفظت بدورها كمخزن للقمح، وهذا الأمر يشكّل ورقة ثمينة حين طالت الغزوات بقية الإمبراطوريّة. كان القيصر وكنيسة روما وكنيسة رافينا والأعيان الإيطاليون الباقون على قيد الحياة يملكون هناك أملاكاً واسعة

Twitter: @alqareah

تمدّهم بإيرادات كبيرة. إن الغزوات في البلقان، وفي الشرق جلبت إلى جزيرة صقلية اللاجئين الذين عزّزوا موقع اللغة اليونانية، وقد قام أحفادهم باحتلال الكرسي الرسولي للبابا مرّات عدّة.

2 ـ **البلقان**: تزايدت تسلّلات السلاف اعتباراً من سنوات 540م، وقوي وزنهم العسكري بسبب مؤازرة القبائل التركية الأصل لهم: القطريغوريون koutrigours، وخصوصاً الأوار Avars. لم يهمل يوستنيانوس الدفاع عن شبه الجزيرة التي شهدت ولادته. لقد أسّس هناك مدينة جديدة من أجل الاحتفال بذكرى هذا الحدث، ولقد أُشيدت بمبادرة منه عدة مئات من أعمال الدفاع التي كانت تختلف كثيراً في أهميّتها. غير أن ولاية الليريكوم «Illyricum» لم تكن تحظى بالأولوية. وقد سحبت منها بعض الفرق العسكرية كي تحارب في إيطاليا أو في الشرق.

استولى الأوار عام 582م على سيرميوم «Sirmium»، وهي مدينة استراتيجية تتحكّم في مداخل شبه الجزيرة البلقانية، واستطاع السلاف عندها أن يجتازوا اليونان إلى منطقة البيلوبونيز على دفعات متعدّدة، واستقروا بكثرة وخصوصاً بمنطقة مدينة تسالونيكي التي حاصروها عبثاً عام 586م ثم عام 618م. ولقد تُرك المواطنون إلى حدّ بعيد لأنفسهم وللقدّيس حاميهم ديمتريوس (Saint-Dèmètrios) من أجل الدفاع عن مدينتهم، حسبما ورد ـ مع الكثير من المبالغة من دون شك ـ في «عجائب ديمتريوس». إن دفع الجزية المرتفعة باستمرار لم يوقف تقدّم الأوار الذين أوقف زحفهم لفترة قصيرة فقط، حين ردّ القيصر موريس عسكرياً، بعد أن حرّر حدود الدانوب، إلاّ أن جيشه انقلب عليه وقتله، نظراً لأنه أجبر الجيش على قضاء فصل الشتاء شمال نهر الدانوب.

Twitter: @alqareah

لقد كانت الحرب مع الفرس تستأثر بكل قوى بيزنطية في الشرق، فتقدّم الأوار مع مساعديهم من السلاف إلى القسطنطينية التي حاصروها عام 626م، إلاّ أنهم هزموا وتفتّتت إمبراطوريّتهم. ولكي يحدّ هرقل من تأثيرهم سمح بإقامة الصرب والكروات في الشمال الغربي لشبه الجزيرة. إلاّ أن هذا لم يمنع السلاف من الاستمرار بتوسّعهم، منتشرين في كل اليونان. ولقد قام سجال بين المؤرِّخين من أجل تحديد وقع الغزوات السلافية على سكان اليونان. يُجمع الكلّ اليوم على أن سواحل بحر إيجه وجزره، التي كانت البحرية البيزنطية تصلها بسهوله، نجت من الاحتلال السلافي، وقد استقبلت اللاجئين اليونان، وحافظت على إدارتها الإمبراطورية. أما في الشمال، فإن طريق أغناطيا لم تعد سالكة بين دراخيون «Dyrrachion» وتسالونيكي، وقد قطعت كذلك بين هذه المدينة الأخيرة والقسطنطينية. أما الساحل الدلماطي «Dalmate» فقد احتفظ بجيوب يقطنها سكّان لاتين كما في سبليت «Split» أو زادار «Zadar»، إلاّ أن جماهير غفيرة من السلاف أصبحت تفصل بين الجزء من البحر المتوسط الذي يتكلّم اليونانية وبين الجزء اللاتيني. هذا الفتح السلافي دمّر كليةً تقريباً الشبكة التي تصل المدن والمتوارثة منذ العصر القديم. غير أن استقرار السلاف وهم مزارعون، قد جعل النشاط يدبّ في سكان الريف في البلقان إلى مدى ما زال موضع مناقشة.

حاول القياصرة البيزنطيون فتح محاور المواصلات كلما كان الوضع في الشرق يسمح بذلك. حين ترك كونستانس الثاني (Constant II) عاصمته عام 662م اضطر إلى أن يركب البحر للوصول إلى تسالونيكي، قبل ان يأخذ طريق أثينا وكورنثوس «Corinthe»، وقد كان في العام التالي آخر حاكم بيزنطي، قبل مجيء أسرة باليولوغوس (Paléologues) [في القرن الثالث عشر

Twitter: @alqareah

الميلادي]، يزور «روما القديمة»، وقد أقام بصقلية التي وفّرتها الغزوات، وهناك اغتيل عام 668م. إنّ إعادة سلطة بيزنطية في بلاد البلقان قد أفسدها وصول البلغار إلى شبه الجزيرة، تحت قيادة الخان أسباروخ (Asparouch)، وقد أجتازوا الدانوب وهزموا قسطنطين الرابع (Constantin IV) عام 681م. اعترف الإمبراطور [القيصر] بملكيّتهم للأرض بين الهاموس «Hæmos» وبين الدانوب، ودفع لهم جزية. نشأت منذ ذلك الحين دولة جديدة مقامة حول بليسكا (Pliska) تتقاسم شبه الجزيرة مع البيزنطيين. إلاّ أن المواجهة لم تكن دائمة، على عكس ما حصل مع المسلمين، فلقد قام البلغار بمساعدة بيزنطية ضد العرب، أمام القسطنطينية.

بعض الحملات في وجه السلاف، كحملة يوستنيانوس الثاني (Justinien II) عام 688م حيث أسر العديد من السلافيين ونقلهم إلى آسيا الصغرى، وحملة ستوراكيوس (Staurakios) عام 783م أثناء وصاية الملكة إيرين كانت كافية لإعادة البُنى الإدارية مع خلق مناطق الهيلاد «Hellade» والبيلوبونيز «Péloponnèse» ثم نيكوبوليس «Nicopolis». غير أن التقدّم كان بطيئاً جداً، وكان لا بد من مجيء قسطنطين الخامس (Constantine V) كي يتمّ بالفعل تحرير منطقة ثراس «Thrace» والدفاع عنها بشبكة محدّدة من القلاع، ثم مجيء نقفور الأول(*) ليعمّ السلم منطقة البيلوبونيز، بعد إخماد التمرّد الذي قام به السلاف القاطنون ضواحي باتراس «Patras».

(*) جرت لهذا القيصر حادثة شهيرة مع هارون الرشيد، إذ كتب رسالة مهينة إلى الخليفة في بغداد، فما كان من الرشيد إلاّ أن أجاب برسالة قاسية مطلعها «من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قرأت كتابك والجواب ما ستراه دون أن تسمعه». ثم شنّ عليه الحرب. (المترجم).

Twitter: @alqareah

3 ـ **آخر «حرب كبرى في العصر القديم»**: كانت فارس وبيزنطية تتواجهان تقليدياً من أجل السيطرة على أَرمينيا التي يقطنها مسيحيّون متعلِّقون بغالبيتهم بكنيستهم القويّة، إلاّ أنهم يعيشون تحت تأثير الحضارة الفارسية. والحال، فإن فارس كانت تسيطر على الطرق المؤدية إلى الأناضول وبلاد ما بين النهرين. كانت الحدود محصّنة جداً من الجهتين، وكل واحد من الخصمين كان يحظى بمساعدة عرب فعّالين: الغساسنة من أجل البيزنطيين واللخميّون من أجل الفرس، وذلك في القرن السادس الميلادي. كانت هذه الحروب بشكلٍ عام تبقى محدودة في نتائجها، مع أن الفرس استطاعوا أن يستولوا على أَنطاكية عام 540م. افتتح الفرس في مطلع القرن السابع الحروب، فلقد رأى كسرى (Chosroès) الصراعات الداخلية في الإمبراطورية، فاعتقد أن الوقت حان كي يضرب ضربته القاضية. في حين كان الإمبراطور [القيصر] فوكاس (Phocas) يواجه تمرّد هرقل، قاومت الجيوش البيزنطية بعناد في الشرق، إشارة إلى أن البُنى الحربية بقيت قويّة. غير أن هرقل أزاح فوكاس واستولى على الحكم عام 610م، إلاّ أنه برهن كحاكم جديد على أنه غير قادر على أن يقف في وجه الفرس الذين استولوا خلال بضعة أعوام على سوريا وفلسطين ومصر، وبلغ الألم ذروته مع سقوط القدس سنة 614م، لأن السكان ذُبحوا ونُقل الصليب الحقيقي إلى الأسر في ستيسيفون «Ctésiphon». تقدّم الفرس إلى القسطنطينية، بعد أن نهبوا وأحرقوا العديد من المدن في آسيا الصغرى.

إن ضياع الأقاليم الأغنى في الإمبراطورية لم يثنِ عزم هرقل، بل إنه أعاد بناء جيش بفضل كنوز الكنيسة التي أُذيبت بموافقة البطريرك سرجيوس، نظراً إلى أن القضية كانت إنقاذ المسيحيين. وقد جَرُؤَ عام 626م على هجر عاصمته التي يحاصرها الأوار والفرس، ولكن تحرسها حامية كبيرة وأيقونة العذراء الحامية

Twitter: @alqareah

الأولى للمدينة، والتي مُرِّرت على كل أسوارها. ورُدَّ المهاجمون على أعقابهم، واستطاع هرقل بمساعدة شعب تركي يقيم بشمال القوقاز، الخزر، أن يدخل بلاد ما بين النهرين وأن يهزم الجيش الفارسي، وأن يتسبَّب بقيام ثورة داخل القصر في ستيسيفون خلَّصته من كسرى وأصبح الحكَم في أمر وراثة التاج الفارسي، وقد فاوض على انسحاب الجيوش الفارسية التي كانت تحتل الشرق. كان ذلك نصراً شاملاً من دون أن يحطِّم هرقل قوى الخصم. وساد خلال سنوات شعور بالفرح وبالتفاؤل. وسافر القيصر بنفسه إلى القدس في موكب مهيب في شهر آذار/مارس 630م كي يستقبل الصليب الحقيقي، وعاقب اليهود الذين كانوا قد تعاونوا مع العدو حين سقوط القدس، وأمل بأن يعيد وحدة المسيحيين بالتفاوض مع أنصار مذهب الطبيعة الواحدة السوريين والنساطرة في بلاد فارس، وسرت الشائعات تقول إن ملك الفرس قد يعتنق هو أيضاً المسيحية.

أراد القيصر أن يتقرّب من أنصار الطبيعة الواحدة، فشدّد على وحدة المشيئة عند المسيح من دون أن يتخلّى عن طبيعته المزدوجة، وذلك بمرسوم حول الإيمان نُشر عام 638م، فكان أن افتتح أزمة جديدة هي أزمة وحدة المشيئة (monothélisme) عند المسيح، وبهذا فقد أغضب أنصار الطبيعة الواحدة وأنصار المجمع الخلقدوني، على الأخص الكنيسة الرومانية. أما خليفته كونستانس الثاني (Constant) فقد اصطدم بتشديد مكسيموس المعترف (Maxime le Confesseur)، وهو راهب فلسطيني لجأ إلى الغرب، وقد حرّض البابا مارتينوس (Martin) على إدانة هذا المذهب في مجمع لاتران Latran عام 649م. لقد عاب مكسيموس على الإمبراطور [القيصر] إرادته أن يحدِّد العقيدة في حين أن هذا امتياز تتمتّع به الكنيسة المجتمعة في مجمع واحد. ولم تنته

Twitter: @alqareah

الأزمة إلاّ مع مجمع 680 ـ 681، الذي عقد في القسطنطينية وترأسه القيصر قسطنطين الرابع، وقد أدان مذهب المشيئة الواحدة، وكان الأمر سهلاً جداً لأنه لم تعد هناك حاجة إلى استقطاب أنصار الطبيعة الواحدة، الذين قد أصبحوا تحت حكم العرب.

4 ـ **الهجوم العربي الإسلامي**: ما إن استقرّت الإدارة والجيوش جزئياً من جديد بالأقاليم الشرقية حتى نشبت أولى الهجمات العربية. منذ فترة وجيزة كان العرب قد توحّدوا حول الدين الذي دعا إليه النبي محمد (ﷺ)، والذي لم يدرك البيزنطيون جدته، واجتاحوا فلسطين وحقّقوا فيها انتصارات فتحت لهم أبواب دمشق. ولما كانت القوّات المحليّة القليلة العدد لا تستطيع مواجهة الموقف عبّأ هرقل الجيش الريفي الوحيد في الإمبراطورية الذي أُبيد بأكمله تقريباً في معركة اليرموك (رافد من نهر الأردن) التي حصلت في شهر آب/أغسطس عام 636م. لم يكن القيصر يملك احتياطاً يستبدل به الرجال الذين خسرهم، ولمّا لم يكن يريد أن يبدِّد جيوشه الباقية في معارك لا طائل تحتها، فقد سحبها نحو الأناضول. دمشق والقدس وأَنطاكية وقيصرية فلسطين سقطت بالتتابع بعد حصارات قصيرة ومعاهدات بين المنتصرين وبين السكان الذين لم يعودوا يأملون في أي مساعدة من الإمبراطورية.

لم يعد شيء يقف في وجه فتح مصر التي فتحت عام 641م على الرغم من مقاومة الجيش البيزنطي الصغير [جيش الروم] الذي دافع عنها، وبشكل خاص عن الإسكندرية، حيث أعطى القيصر ـ وهذا أمر استثنائي ـ كل الصلاحيات للبطريرك كيروس (Kyros)، كل ما صنعه هرقل ضاع بعد اليوم، ومع ذلك

Twitter: @alqareah

فإن هذا المَلِك بقي في تاريخ عظماء البيزنطيين (الروم) كواحد من أكبر العظماء، إلى جانب قسطنطين ويوستنيانوس وباسيل (Basile II) الثاني. فمنذ عهد ثيودوسيوس كان هو أول قيصر يقود بنفسه الجيش في أرض المعركة، وقد أدخل إلى الألقاب الرسمية لقب باسيليوس (الإمبراطور، القيصر) [الملك في اليونانية]، وهذا تغيير يرمز إلى الطابع اليوناني(*) الحصري الذي اتخذته الحكومة المركزية.

كان العرب قد بدأوا في الوقت عينه بتقليص الإمبراطورية الفارسية فتقدّموا نحو بلاد ما بين النهرين، ثم نحو أَرمينيا، وقد قرّر زعيم هذا البلد أن يفاوض على معاهدة لا يدفع جزية بموجبها بل يمدّ العرب بفرق عسكرية مساعدة، شرط ألاّ تستخدم ضدّ البيزنطيين (الروم). استعمل العرب أسلحة الترسانات التي خسرها خصومهم البيزنطيون (الروم)، وبدأوا مهاجمة جزيرتي قبرص ورودس، وشتّتوا عام 655م أسطول الإمبراطورية.

إن ما أنقذ البيزنطيين (الروم) ربما كان يعود إلى الحرب الأهلية بين الخليفة عليّ وبين حاكم سوريا التي كانت قد فتحت، معاوية. هذه الحرب التي قادت إلى الانقسام بين الشيعة والسنّة حطمت، قبل كل شيء ولسنوات عديدة، انطلاقة الفاتحين العرب. حين أصبح معاوية خليفة هيّأ نفسه للهجوم الأخير ضدّ القسطنطينية فجيّش أسطولاً كبيراً، واجتاز آسيا الصغرى من دون أن يجد مقاومة تُذكر، وحاصر العاصمة البيزنطية مدّة أربعة أعوام (674 ـ 678). نجح

(*) أطلق العرب تسمية روم على كل البيزنطيين، ولقب قيصر على أباطرتهم وملوكهم، على الرغم من الطابع اليوناني لهذه الإمبراطورية الرومانية الشرقية. (المترجم).

Twitter: @alqareah

القيصر الشاب قسطنطين الرابع في تحطيم جزء من سفن العدو حين استخدم النار اليونانية التي عملها مهندس سوري هو كالينيكوس (Kallinikos)، وشتّتت العاصفة بقية الأسطول.

إن خلاص القسطنطينية كان أول عملية وقف للتقدّم العربي، لذا فقد كان له وقعٌ كبير وخصوصاً في البلقان حيث ذهب الزعماء المحليّون لتهنئة القيصر، كما أنه أعاد الثقة إلى البيزنطيين (الروم)، لأن معاوية قَبِل حتى دفع جزية. وبدت عودة الروم إلى الشرق أمراً غير مستبعد. ولقد اعتقد يوستنيانوس الثاني ابن قسطنطين الرابع أن اللحظة مؤاتية حين نشبت اضطرابات خطيرة في الخلافة الأموية بعد وفاة معاوية. عزّز يوستنيانوس الثاني جيشه بفرقة سلافية مهمة، وزحف نحو أَرمينيا ليضعها تحت سلطة القيصر، إلاّ أنه لقي هزيمة قاسية عام 692م.

هذه الهزيمة أعادت التفوّق لمدّة طويلة للعرب، وكان هؤلاء قد أقاموا لهم قاعدة في القيروان في إفريقيا، حيث عرفوا كيف يكسبون ودّ بعض قبائل البربر ويجعلونهم يتحوّلون إلى الإسلام، وقد احتلوا بقية الإقليم، ولكن لم يمرّ الأمر من دون صعوبات بسبب مقاومة بربر آخرين كانوا هزموا في النهاية، وسقطت قرطاجة نهائياً عام 698م، على الرغم من إرسال أسطول رومي للنجدة. في الشرق كانت كيليكيا تتأرجح بين الخصمين إلاّ أن الروم خسروها، وأصبحت أرمينيا ولاية يحكمها والٍ عربي. وتثبّتت الحدود لقرون عدّة على جبال طوروس التي كانت خالية تقريباً من السكان، بل إن العرب كانوا قادرين مرّات عديدة على أن يصلوا إلى هضبة كبادوكيا، إلاّ أنهم طُردوا منها في كل مرّة.

كانت اللحظة تبدو مؤاتية لهجوم جديد ضدّ القسطنطينية خصوصاً أن السلطة العليا كانت مهتزّة. عاد يوستنيانوس الثاني إلى الحكم عام 705م بعد أن كان قد طُرد منه، إلاّ أن انقلاباً قام

Twitter: @alqareah

ضدّه وقتل مع أفراد أسرته عام 711م، وبذلك وُضع حد لأسرة هرقل. وقد تتابع عدّة قياصرة على العرش في بضع سنوات، وكان الجو السائد هو جوّ المؤامرات والانقلابات العسكرية. كان المسلمون يحضّرون لحملة جديدة، وقد اعتمدوا على تمرّد قائد الأناضوليين ليون الأيصوري (Léon l'Isaurien) الذي خدعهم حين دخل القسطنطينية في ربيع عام 717م، قبل وصول العدو. وقد حاصر خلال عام كامل في 717–718 المدينة من جديد أسطول ضخم وجيش جرّار، غير أن الشتاء الذي كان قاسياً جداً وهجوم البلغار من المؤخِّرة والتحطيم الجزئي للأسطول، كلها عوامل أدّت إلى تراجع المهاجمين.

كان لهذا الفشل الأخير نتيجة كبيرة، نظراً لأن المسلمين استسلموا لفكرة بقاء إمبراطورية مسيحية في حين كانوا يأملون بجمع كل العالم المعروف، فارس وبيزنطية، كي يشهدوا لتفوّق إيمانهم الديني. لم يحاولوا بعد ذلك أن يحلّوا محل الهيمنة البيزنطية، بل أخذوا، وذلك منذ ما قبل عام 700م، بتطوير مؤسساتهم الخاصة بهم، فصنعوا عملتهم الخاصة الدينار الذي أصبح منافساً على عملة الروم نوميزما nomisma، وعرَّبوا الإدارة. إن هزيمتهم الثانية أمام الأسوار التي لا تقهر لروما الجديدة جعلتهم يتّجهون أكثر نحو الشرق، وتوّج هذا التطوّر عام 750م بمجيء العباسيين الذين غيّروا مركز السلطة من دمشق إلى العراق، حيث أُسّست بغداد بعد ذلك بقليل، فكانت إشارة إلى التخلّي عن فكرة إسقاط العاصمة المسيحية.

Twitter: @alqareah

IV ـ الرد على التحدّي الإسلامي

1 ـ **قلق النفوس**: إن السرعة الفائقة التي تطوّرت فيها الخلافة قد أدهشت دوماً المؤرّخين الحديثين، ولا تزال تطرح الأسئلة على المؤرّخين المعاصرين. اعتبر المسلمون أن سلسلة الانتصارات هذه تبرهن عن تأييد الله لهم وعن صحّة الوحي الذي نزل على النبي محمد (ﷺ). لم يكن من الممكن أن يقبل المسيحيون بمثل هذا التفسير، إلاّ الذين تحوّلوا منهم إلى الإسلام، وكان عددهم محدوداً. كان هناك سبب واحد مقبول، وهو أن الله يعاقب شعبه على خطاياه. انطلاقاً من وجهة النظر هذه كانت التحليلات تتباين، فاليعاقبة والأقباط كانوا يعتقدون أن القياصرة (الأباطرة) قد عوقبوا لأنهم أساؤوا معاملتهم، في حين أن الخلقدونيين (أنصار مجمع خلقيدونيا) كانوا يقولون إن الأقاليم الشرقية وقعت ضحيّة الغزو لأن سكانها كانوا من الهراطقة (أصحاب البدع).

تبع العلماء المعاصرون أحياناً التبريرات التي وجدوها في النصوص القديمة. بالفعل، فإن العرب لم يستفيدوا من أي سلاح جديد، ولا من أي وقع للمفاجأة، لأنهم هم الذين كانوا يدافعون عن الحدود في وجه مواطنيهم من الجزيرة العربية، أكان ذلك من جهة الحدود مع بيزنطية (بلاد الروم) أو مع بلاد الفرس. كان تفوّقهم الوحيد يكمن في موقعهم الوسطي المركزي الذي سمح لهم بأن يرسلوا سريعاً الإمدادات العسكرية إلى أي نقطة في الجبهة. لقد قال بعض العلماء كذلك كفرضية بأن الجزيرة العربية لم تتعرّض لأوبئة الطاعون المنتقلة مما أعطى للجيوش العربية التفوّق العددي، غير أننا تنقصنا البراهين القاطعة عن هذه الأطروحة. لهذا فقد بحث المؤرخون من جهة الانقسامات الدينية

Twitter: @alqareah

التي كانت حقيقية والتي من الممكن أن تكونٍ قد أضعفت مقاومة بيزنطية (الروم)، نظراً إلى أن السكان المحلّيين على ما يبدو قد استقبلوا العرب بالترحاب. ومنِ الصحيح كذلك أن سوريا ومصر قد طوّرتا خصوصيّاتهما المحلِّية مهملين اللغة اليونانية لصالح السريانية والقبطية، وهذا عمل تمهيديٍ يُنذر بالانفصال عن بقية الإمبراطورية. مما لا شك فيه أن قسماً من رؤساء أنصار الطبيعة الواحدة قد استقبل بالترحاب في البداية القادمين الجدد، الذين لم يكن عندهم أي سبب لكي يقفوا إلى جانب الخلقدونيين، الذين أصبح اسمهم الملكيين، وذلك على العكس من الإدارة السابقة، وهذا ما أتاح لهم، كما حدث في مدينة أوديسّا «Édesse» أن يستعيدوا كنائس لهم كانت قد صودرت.

غيرٍ أن ما يجب قوله هو أنه قبل الفتح العربي، لم يكن هناك أي شيء يؤكّد أن الولاء للقسطنطينية كان قد ضعف في الشرق.

إن كون المسيحي من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة لم يكن يعني التأييد المباشر للنظام الجديد. إن قسماً من الغساسنة من أتباع الطبيعة الواحدة والذين هُزموا في معركة اليرموك حين كانوا إلى جانب بيزنطية (الروم) فضّل أن يتراجع إلى كبادوكيا على أن ينضم إلى المنتصرين. لقد عرف العرب كيف يستغلّون الفرصة التاريخية التي قدّمتها لهم الحرب بين الروم وبين الفرس التي أضعفت كثيراً الإمبراطوريّتين وحرّرتهم من مراقبة الفئتين المتقاتلتين لهم. حتى ذلك الحين كانت هاتان الفئتان (الروم والفرس) تمنعان باستمرار توحيد القبائل العربية.

2 ـ **الترتيبات الماليّة والعسكرية**: لقد لحق الضرر بمالية الإمبراطورية بعد الهزائم التي مُنيت بها في الشرق، وهذا أمر لا مفرّ منه، لأن معظم الموارد الضرائبية، وكذلك بلا شك معظم

Twitter: @alqareah

مخزون المعادن قد فقدت. والحال أنه لا يمكن إهمال حاجات الجيش، خصوصاً إن بقاء الإمبراطورية كان يتوقّف عليه. كان لا بدّ من التكيّف والبحث عن الحلول الاقتصادية. لقد تخلّى الحكم عملياً عن نظام المرتزقة الذي كان يعني دفع أموال نقدية للجنود بانتظام. وأمر هرقل بانسحاب الجيش الملكي في الشرق للعودة إلى آسيا الصغرى، وبعد ذلك بسنوات سحب الفرق المعسكرة في أرمينيا. أمّا جنود النخبة في العاصمة فقد وزّعوا على حاميات في الأقاليم خصوصاً في بيتينيا. ولم يعد المحاربون، إلاّ في الندرة، يتلقّون رواتبهم ذهباً، ربما كل أربع سنوات، إلاّ أنهم كانوا يتلقّون مباشرةً مؤناً يأخذونها من الضرائب المفروضة على الفلاحين الذين كانوا يدفعونها عيناً من محاصيلهم. كان من الضروري تقريب المستفيدين من الضريبة من الذي يدفعها، لأن القمح وغيره من الحبوب كان نقله، إن لم يكن عن الطريق البحري، يكلّف كثيراً. وكان هذا هو السبب في توزيع الرجال على كل أراضي الأناضول، وهذا الحل كان يشكّل نقطة ضعف على الصعيد العسكري، نظراً لأن التعبئة ضدّ الهجمات العربية القوية أصبحت بطيئة بسبب هذا الأمر.

حين كان على الدولة تعبئة جنود جدد، كان الجنود القدماء في الغالب أبناء جنود سابقين، نظراً لأن هذا الأمر كان قد أصبح وراثياً، وكانت التعبئة تتم ضمن حدود المقاطعات الجديدة التي أخذت أسماء الأقاليم السابقة حيث كانت تقيم الوحدات العسكرية، فأصبح عندنا: قوات إقليم الأناضول (الشرق)، قوات الإقليم الأرمنية (أرمينيا) وقوّات الحرس... وقد عيّن رؤساء استراتيجيون يجمعون المسؤوليات العسكرية والمدنية على رأس كل وحدة إقليمية بدل الرؤساء العسكريين السابقين، وأخذت الإدارة المدنية تقترب تدريجياً من إدارة الأقاليم العسكرية التي قُسّمت إلى أجزاء أصغر،

Twitter: @alqareah

منذ أيام قسطنطين الخامس، نظراً إلى أن الرؤساء الإستراتيجيين قد بانوا على جانب كبير من القوة، في حالة حدوث تمرّد، كما أن الأقاليم الرومانية القديمة اختفت أثناء القرنين الثامن والتاسع. لقد أوجدت قيادات أقاليم جديدة كلّما بان تهديد عربي، كما حدث في صقلية، أو حين أعادت الإمبراطورية تنظيم البلاد المفتوحة، كما حصل في البيلوبونيز ثم الهيلاد «Hellade» (اليونان الوسطى). وقد وزّع الأسطول كذلك بحسب هذا المبدأ نفسه: بدل قوّات البحارة أصبح عندنا قاعدة قوّات عسكرية بحرية، وكان أهمها مركز السيبريوتين «Cibyrrhéotes» القائم حول أتاليا «Attaleia» في جنوب غرب آسيا الصغرى.

بفضل هذا النظام الاقتصادي استطاعت الإمبراطورية أن تحافظ لا على ميليشيا من الفلاحين، بل على جنود مدرّبين حتى وإن لم يكونوا في أعداد كافية إن قارنّاهم بالمهاجمين. وظهر تطوّران خلال مسيرة القرون الطويلة: من ناحية كان جند الأقاليم يتجذّرون تدريجياً في منطقتهم، لأن الراتب القليل الذي كانوا يتلقّونه كان يسمح لهم بشراء الأراضي أو الزواج ببنات الأعيان المحلّيين ويندمجون فيهم، ومن ناحية ثانية، ما إن كان الاقتصاد في الأقاليم القريبة من العاصمة ينتعش ويسمح بانتقال متسارع للنقد حتى استطاع قسطنطين وخلفاؤه أن يطلبوا تدريجياً من جديد دفع الضرائب نقداً، وهذا مكّنهم من إعادة إنشاء جيش من المرتزقة جاهز باستمرار ومكرّس غالباً هو جيش التاغماتا tagmata (المرتزقة).

كانت الإمبراطورية عام 718م في حال مختلفة تماماً عمّا كانت عليه قبل قرنين. مما لا شك فيه أن بعض المؤسسات قد صمدت جيداً، على الرغم من بعض الأزمات الخطيرة العابرة. لقد

Twitter: @alqareah

قويت سلطة القيصر بسبب الانتصارات الحديثة، والنوميزما nomisma (الدينار) لم يصب بأي أذى وظلّ محافظاً على قيمته، أما الموظّفون الرسميّون فكانوا أَكْفَاءَ وقد حافظوا على إدارة قوية، وإن كانت قد تقلّصت إلى مقاطعة الشرق القديمة. أما بالنسبة إلى الباقي فإن التباين لافت جداً. إن الإمبراطورية كلها منكمشة على آسيا الصغرى بشكل فريد، ويتكلّم الناس فيها اليونانية فقط تقريباً إلاّ في إيطاليا، وهي تبدو في نظر العرب ريفية بشكل أساسي، ومحدودة بتبادلات تجارية واهنة وعسكرية إلى حدّ بعيد، وبعد خسارة الإسكندرية وأَنطاكية وعزل تسالونيكي لم يعد فيها سوى مدينة كبيرة (متروبول métropole) واحدة هي القسطنطينية «Constantinople»، أضف إلى ذلك أنه لم يعد يسكنها سوى قسم قليل من الذين كانوا يقيمون بها أيام أناستازيوس، وربما لم يكن يتجاوز الخمس، إلاّ أنها ما زالت تحافظ على طابعها كإمبراطورية رومانية، واستمر الأعيان يقيمون بقصور قديمة بُنيت منذ ثلاثة قرون، ولم يعد أعضاء مجلس الشيوخ يُحسبون كطبقة اجتماعية مهيمنة بثروتها ـ كان يوستنيانوس قد صادر كل الثروات التي اعتبرها مبالغاً فيها ـ بل أصبحوا مجموعة من كبار الأعيان زال دورهم السياسي لصالح الجيش. مما لا شك فيه أن التقلّب الاجتماعي قد ازداد منذ عصر يوستنيانوس، كما أن كوارث القرون التي تلت قد فتحت حظوظاً جديدة للجنود الطارئين وللغرباء من أي أصل أتوا. أما على الصعيد الديني فإن الإمبراطورية متجانسة أكثر، نظراً إلى أن أتباع مذهب الطبيعة الواحدة أصبحوا تحت حكم الخلفاء، وسكّانها بمن فيهم القيصر نفسه غير أكيدين من مستقبلها ويسلّمون أمرهم اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى اللّه، عن طريق شفاعة القدّيسين وذخيراتهم وأيقوناتهم.

Twitter: @alqareah

الفصل الثالث

تجديد الإمبراطورية

(718 ـ 1057)

بعد أن أفلتت الإمبراطورية البيزنطية من الاندثار بفضل أسوار عاصمتها والمقاومة العنيدة للمدافعين عنها ولسكّانها، وجدت ما يكفيها من القوّة كي تردّ بحزم متزايد على هجمات المسلمين. وازدادت الثقة تدريجياً بالحماية الإلٰهية لها، في حين أن الظروف المادية تحسّنت ببطء، حتى أن جيوش الإمبراطورية أخذت في القرن العاشر زمام المبادرة في الشرق، ثم في الغرب، ثم وسّعت الحدود على الدانوب وإلى ما وراء الفرات في منتصف القرن التالي.

I ـ من الأيصوريين إلى الأموريين

1 ـ **حرب الأيقونات**: عزّز انتصار 718م سلطان مغتصب السلطة ليون الثالث الأيصوري (Léon III l'Isaurien)، إلاّ أن الوضع ظلّ صعباً، نظراً إلى أن العرب ظلّوا يتوغّلون في عمق الأناضول وكادوا أن يحتلوا عام 727 مدينة نيقيا عاصمة الأبسيكيون «Opsikion»، الحرس الآسيوي الذي كان يحمي العاصمة. وحصل زلزال في سانتورين «Santorin» أعقبه إعصار

Twitter: @alqareah

كاسح ما أوحى إلى أن الغضب الإلٰهي ما زال يضرب دوماً الإمبراطورية المسيحية. مع أن الهرطقات قد اختفت منذ أن تخلّى القياصرة عن مذهب المشيئة الواحدة (monothélisme) [في طبيعة المسيح]. وكما أن اللّه لا يمكن أن يكون ظالماً تساءل القيصر عن الممارسات الدينية للبيزنطيين (الروم) بإثارة غضبه.

كان التعبّد للصور (الأيقونات) قد أثار عداء قسم من رجال الإكليروس الذين كانوا يستندون إلى حظر «التوراة» لتمثيل اللّه. غير أن هذا التمسك بالصور قد حظي ضمناً بموافقة الكنيسة، حين حمل الناس أيقونات العذراء في مسيرات، في أحلك الأوقات وأخطرها، كي تظلّل أُم اللّه بحمايتها مدينتها. لاحظ ليون الثالث، وهو رجل ورع جداً، أن هذا التعبير قد أخذ أشكالاً متطرِّفة: كان من المفترض بغبار الأيقونات أن يشفي، وكان بعض الوالدين يعيّنون أيقونة كعرّاب لابنهم. حين أزال القيصر هذا التعبّد والمغالاة فيه التي تشوبها عبادة أصنام كان يأمل في تهدئة الغضب الإلٰهي. وفي جلسة رسمية مهيبة عقدت عام 730م في القصر أدان القيصر رسمياً هذا التعبّد، مفتتحاً بذلك ما سمّي بحرب الأيقونات.

إن أول تاريخ تحطيم لِلأيقونات (iconoclasme) ـ بالمعنى الحرفي تكسير الصور، أي تكسير كل تمثيل على أي مواد كان، للمسيح وللعذراء وللقدّيسين ـ ما زال مجهولاً لأنه لا يمكن أن يستند إلاّ إلى كتابات سجاليّة لأتباع الأيقونات الذين دمَّروا كل النصوص المؤيِّدة للقياصرة الأيصوريين. ظلّت أولى ردود فعل على مرسوم ليون الثالث معتدلة جداً. استقال البطريرك جرمانوس (Germain) واعتزل بهدوء في دير، واحتج البابا غريغوريوس الثاني (Grégoire II)، نظراً إلى أن العلاقة بالصور كانت تختلف في الغرب، إذ كانت هذه عبارة عن توضيح ما في «الكتاب المقدّس» مهمته تعليم المؤمنين الأمِّيين. ولقد زاد تأثّر البابا حين

Twitter: @alqareah

فصل ليون الثالث عنه مقاطعة الليريكوم مع تسالونيكي لكي يضمَّها إلى البطريركية القسطنطينية جاعلاً بذلك الحدود الدينية تتطابق مع الحدود السياسية. ولقد حقَّق ليون الثالث عام 740م، وقبل موته بقليل، وهو إلى جانب ابنه قسطنطين الخامس نصر أكروينون (Akroïnon) الهام على فرقة عربية كبيرة، هذا ما عزّز موقع الروم لفترة طويلة، خصوصاً أنه قد نشبت في داخل الخلافة الحرب الأهلية بين الأُمويين والعباسيين.

لم تأخذ محاربة الأيقونات شكلاً نضالياً إلاّ في عهد قسطنطين الخامس الذي كان لاهوتياً ضليعاً، والذي كان يُدين بحكم شخصي التعبّدَ للعذراء والذخيرات، ثم هاجم الرهبان المدافعين عن الأيقونات. ولكي يبرِّر السبب الحقيقي لخياره استند إلى الانتصارات التي حقَّقها ضد البلغار والعرب. وبذا ارتبط تطوّر قضية صراع الأيقونات بشكل كبير بالوضع الخارجي للإمبراطورية، فانتصار جيوش القيصر كانت تشهد للمؤازرة الإلهية. وفي عام 754م وفي مجمع هييريا «Hiéreia» وهو قصر قريب من القسطنطينية، أيّدت غالبية من الأساقفة البيزنطيين قسطنطين الخامس في رفضه تأييد الأيقونات. ولقد رفضت روما مقرَّرات المجمع.

هاجم أنصار الأيقونات بعنف القياصرة الأيصوريين، واتُّهم ليون الثالث بأنه يأخذ أفكاره حرفياً من اليهود والمسلمين الذين يعارضون تقليدياً أي تمثيل أو رسم لما هو إلٰهي. بل إن قسطنطين الخامس اتُّهم بأنه قد لوّث ماء معموديَّته، وهذا ألصق به لقب البرازي (Copronyme)، وقلَّل خصومه من نجاحاته العسكرية. لم تكن المعارضة الدينية تتميَّز عن العصيان السياسي لذلك انتهت إلى إعدام بعض الخصوم، وكان أبرزهم إستفانس الشاب (Étienne le Jeune) الذي قضت عليه جماهير القسطنطينية

Twitter: @alqareah

وعسكرها، غير أننا لا نستطيع أن نتكلم هنا عن وجود حركة اضطهاد واسعة.

غير أن القيصرة إيرين كنّة قسطنطين الخامس والوصية على العرش دعت عام 787م إلى عقد مجمع لم يستطع أن يجتمع في العاصمة بسبب احتجاجات الجنود الأوفياء لرئيسهم السابق قسطنطين الخامس، فعقد في نيقيا. أُدينت كل قرارات عام 754م، لأول مرة أُدخل تكريم الصور (الأيقونات) في صلب العقيدة الرسمية للكنيسة، استناداً إلى ما وضعه يوحنا الدمشقي. كان هذا اللاهوتي يعيش في القدس تحت حكم المسلمين، فكان حراً أن يدحض اتهامات محاربي الأيقونات. كان هذا التحوّل ممكناً نظراً لأن إيرين كانت تريد أن تتخلّص من وصاية المخلصين لقسطنطين الخامس، وقد استندت إلى حزب من الرهبان مقيم في بيتينيا وينتمي إلى أرستقراطية القسطنطينية التي كانت قد هربت من العاصمة، كما حصل مع المؤرِّخ ثيوفانوس (Théophane le Confesseur) المعرّف، وقد جعلت من جبل الأولمپ «Olympe» جبلاً مقدَّساً.

أصيب القياصرة بعد عام 787م بسلسلة من الهزائم العسكرية. قاد هارون الرشيد، الذي كان لا يزال مجرد وارث عرش بغداد، حملةً وصلت إلى مالاجينا «Malagina» في بيتينيا «Bithynie» حيث أحرقت اصطبلات القيصر.

ولقد تحمَّل نقفور الأول (Nicéphore I) ذل دفع الفدية لهارون الرشيد، الذي أصبح خليفةً، عنه وعن ابنه. تغلَّب البلغار على قسطنطين السادس (Constantin VI)، وفي عام 811م ألحقوا كارثة بنقفور الأول الذي بقي على أرض المعركة. ثم جاء الخان البلغاري كروم (Kroum) وحاصر القسطنطينية عام 813م. مثل هذه

Twitter: @alqareah

الإخفاقات حملت الجنود على أن يضعوا على العرش قائداً استراتيجياً من قوّات الأناضول هو ليون الخامس الأرمني (Léon V l'Arménien)، كي يعوِّض الخسائر ويفك حصار العاصمة. بعد أن أنجز ليون الخامس هذه المهمة قرّر أثناء انعقاد السنودس (المجمع المقدّس) عام 815م أن يعيد تطبيق قرارات مجمع هييريا «Hiéreia»، على الرغم من معارضة البطريرك نقفور وقسم من المطارنة ورفْض ثيودور المتحدِّر من أسرة كبيرة في العاصمة ورئيس Himougène أشهر دير في القسطنطينية الأستيودويس.

عرف مذهب محاربة الأيقونات آخر نصير له في شخص ثيوفيلس الذي اهتم بتقليد سلفه قسطنطين الخامس، غير أن حروبه ضد المسلمين انتهت عام 838م باحتلال عمورية «Amorion» مهد أسرته الحاكمة والتي كانت عاصمة إقليم الأناضول في ذلك الحين. ثم كانت هناك امرأة هي ثيودورا أرملة ثيوفيلس فوضعت سريعاً حدّاً للحملة الثانية ضد الأيقونات بشكل نهائي في الحادي عشر من شهر آذار/مارس 843م وهو أول أحد للصوم الكبير. وقد أصبح يعرف في التقليد الشرقي باسم «أحد الأُرثوذكسية».

لقد طُرحت أسئلة عديدة حول قضية محاربة الأيقونات. فقد رأى فيها بعضهم محاولة من القياصرة لمصالحة سكان آسيا الصغرى الذين كانوا يمثّلون الحصن الأول في وجه المسلمين، وكان هؤلاء السكان ينتمون إلى تقليد ينبذ الصور (aniconique)، في حين كان سكان البلقان وإيطاليا من محبِّذي الأيقونات. غير أننا نلمس أن بعض محبِّذي الصور قد لجأوا إلى آسيا الصغرى، في حين أننا نرى في الغرب، في نابولي مثلاً آثاراً لمحاربي الأيقونات. إن مذهباً يحظى بالتأييد الثابت للقياصرة يمتلك أفضلية أكيدة. إن الفرق العسكرية التي كان يختارها قسطنطين الخامس كانت تتبع بطبيعة الحال القيصر في تفضيلاته الدينية. ربما استطعنا أن نلمس

Twitter: @alqareah

معارضة بين الجنود الذين أتوا في الغالب من الأقاليم، حتى وإن أقاموا في حامية القسطنطينية، والذين كانوا معادين للأيقونات في غالبيتهم، وبين نُخَب العاصمة المجنَّدين الأحرى لأنصار الأيقونات، من الممكن جداً كذلك أننا نغالي في أهمية هذه المعركة، بسبب المصادر التي بقيت في متناولنا، فهي كفيلة بأن تعبئ النخب، في حين أن الشعب في مجموعه كانت له أولويات أخرى، وعلى رأسها استعادة الأمن. أخيراً، فإن النجاح الأخير لمؤيِّدي الأيقونات وضع حداً لادّعاء القياصرة بحقِّهم في التدخل في تحديد العقيدة، وجعل وجهة نظر ثيودور الإستديوسي (Théodore Stoudite) [رئيس الدير الشهيد] المعارض لتدخل القيصر تنتصر نهائياً.

2 ـ **الجبهة العربية**: لقد هدَّد العرب بيزنطية في الغرب كما في الشرق. ما إن أقام المسلمون في إفريقيا حتى بدأوا بشن هجمات ضد صقلية، ولكنهم قاموا عام 827م بعملية إنزال هناك وجعلوا من باليرمو «Palerme» التي فتحوها سنة 831م عاصمة إمارتهم. وسقطت بقية الجزيرة في أيديهم خلال بضعة عقود، وقد لجأ السكان اليونان على الأخص إلى شرق الجزيرة. وفقدت بيزنطية مصدراً هاماً من إيراداتها. هاجم العرب، انطلاقاً من قاعدتهم الجديدة مناطق كالابريا «Calabre» وبوليا «Pouille» [منطقتين في جنوب إيطاليا] وأُقيمت لفترة محدودة إمارة في تارنتي «Tarente» وأخرى في باري «Bari». وفتحت كريت في ذلك الوقت على يد زمرة من عرب الأندلس الذين مارسوا، مدة قرنين من الزمن، أعمال القرصنة في بحر إيجه.

أما على الأرض فبعد هزيمة ثيوفيلس القاسية عام 838م استطاع البيزنطيون (الروم) أن يستعيدوا توازنهم، وهكذا حقّقوا عام 863م نجاحاً حقيقياً، حين حطّموا قوى إمارة ميليتينيا «Melitène».

Twitter: @alqareah

3 ـ إقامة الإمبراطورية الغربية من جديد: لقد تراجعت بشكل منتظم مواقع البيزنطيين (الروم) في إيطاليا أمام اللومبَرديين الذين انتهوا إلى الاستيلاء عام 751م على مدينة رافينا «Ravenne». كان القيصر قسطنطين الخامس مشغولاً جداً باستغلال الثورة العباسية في الشرق، لذا لم يكن يستطيع أن يلهي جنوده بأمور أخرى حين طلب منه البابا إستفانوس الثاني (Étienne II)، الذي كان يخشى الوقوع تحت حكم الملك اللومبَردي، أن يأتي لنجدته. وتحول البابا بموافقة القيصر إلى الفرنك [الفرنجة]، وكان هؤلاء قد تدخّلوا مرّات عديدة في شبه الجزيرة الإيطالية لصالح القيصر. في ذلك الحين بالضبط كان بيبان (Pépin) القصير(*) ينشئ سلالة جديدة، لذا لم تكن صعوبة في التوصّل إلى اتفاق يخرج بموجبه بيبان اللمبارديين ويعطي البابا الأراضي التي تمثّل المقاطعة السابقة التي ستكون في المستقبل قاعدة الدولة البابوية [وسط إيطاليا]، وفي المقابل، فإن الحبر الأعظم يعترف بشرعية الملكية الكارولنجية الناشئة. هذا التطوّر سيقضي على الثقافة اليونانية في روما، إذ إننا سنفتقد العالِم اليوناني منذ القرن التاسع الميلادي، الذي سيصبح نادراً إذا ما استثنينا أناستازيوس المكتبي. وقد تقلّص الحضور البيزنطي بعد ذلك إلى مقاطعات جنوب إيطاليا وصقلية.

في ميلاد عام 800م توّج شارلمان «Charlemagne» إمبراطوراً في روما بحجّة أن عرش القسطنطينية الذي كانت تتولاّه وقتئذٍ امرأة

(*) كان هذا الملك ابن شارل مارتل الذي يعرفه العرب جيداً في معركة بلاط الشهداء (معركة بواتييه)، وهو والد شارلمان الإمبراطور الذي كانت له مراسلات مع هارون الرشيد. (المترجم).

Twitter: @alqareah

هي القيصرة إيرين (Irène) كان خالياً. اعتاد البيزنطيون [الروم] على فكرة تعدّدية الأباطرة (القياصرة)، على الرغم من محاربتهم المطالبة الطبيعية للكارولنجيين بالاحتفاظ بإيطاليا التي كانت تشكّل سابقاً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية الغربية. وبعد مناوشات عسكرية من أجل السيطرة على منطقة دلماطيا «Dalmatie» والبندقية التي احتلت محل رافينا كمرفأ أساسي للاتصال بالشرق، نادى السفراء البيزنطيون في مدينة آخن «أكس لاشابل Aix-la-Chapelle»(*) بشارلمان بوصفه باسيليوس (Basileus) (ملكاً) مع الاحتفاظ بلقب ملك (باسيليوس) الرومانيين لملوكهم فقط، الذين حفروا منذ ذلك التاريخ هذه الصيغة على نقودهم.

4 ـ الإرساليات بين البطريرك والبابا والتنافس بينهما:

بعد الانقلابات التي أحدثتها الغزوات البربرية الكبرى، بدأ سكان أوروبا الوسطى بالاستقرار، وتطلّع رؤساؤهم إلى الدخول في مجموعة الأمم المسيحية، آملين بذلك في أن يدعموا شرعيّتهم. أظهر البيزنطيون حماسة في التبشير أقل من حماسة الكارولنجيين الذين حوّلوا السكسون إلى المسيحية بشدّة بالغة، غير أن الأمر اختلف في البلقان حيث استطاعوا من دون ضجيج وبالتدريج أن يعيدوا إنشاء شبكة الأبرشيات التي اختفت مع تقدّم السلاف. غير أن أميراً مورافياً استدعاهم، نظراً لأنه كان يشكو عبء الوصاية الكارولنجية، فأرسلوا له أخوين هما كيريلوس (Cyrille) وميثيودوس (Méthode). على الرغم من أن كنيسة مورافيا التحقت في النهاية بروما وأنهى ميثيودوس حياته

(*) آخن بالألمانية هي اكس لاشابل بالفرنسية، عاصمة شارلمان وتقع اليوم في ألمانيا.

Twitter: @alqareah

كأسقف روماني، فإن عمل الأخوين لم يكن فاشلاً؛ فقد كان كيريلوس عالماً في فقه اللغة فوضع الأبجدية الغلاغوليتية (glagolithique)، التي سمحت بكتابة اللغات التي يتكلّمها السلاف، وقد ترجم «الكتاب المقدّس» والعديد من أعمال آباء اليونان إلى اللغة السلوفينية.

تعمّد بوريس (Boris) قيصر البلغار عام 864م وكان عرّابه القيصر ميخائيل الثالث (Michel III)، واتّخذ اسم ميخائيل. ولمّا كان همّه أن ينشئ كنيسة مستقلّة عن البطريركية المرتبطة جداً في نظره بسلطة الإمبراطورية، فقد توجّه نحو البابوية التي رفضت أيضاً الاستقلال الذاتي لكنيسته. إن مطالب بوريس لدى البابا نقولا الأول (Nicolas I^er) أغضبت البطريرك فوتيوس (Phôtios) الذي كان في ذلك الحين على خلاف مع روما. بالفعل، فإن البابا قد أعار سمعه لمؤيّدي البطريرك أغناطيوس (Ignace)، الذي حلّ فوتيوس محله، بعد مكيدة دبّرها البلاط، وقد ألقى الحرم على هذا الأخير. وردّ فوتيوس بمهاجمة بدعة جديدة عقائدية لم تكن البابوية قد تبنّتها: انبثاق الروح القدس من الآب والابن [أي من اللّه والمسيح الابن]، في حين أن التقليد يقول إنه ينبثق من الآب وهو مع الآب والابن. وفي عام 867م حصل فوتيوس من مجمع قسطنطيني على إلقاء الحرم على البابا. وبعد العديد من المشاحنات انتهى انقسام الكنيسة إلى مصالحة بين فوتيوس وبين بابوية تحتاج إلى الإمبراطورية كي تنقذها من هجمات العرب، حين لم يعد في استطاعة الكارولنجيين صدّهم. وقد تمّ الاتفاق على أساس المساواة بين الكرسيّين [الكنيستين في القسطنطينية وفي روما]، وعلى الاعتراف بالعادات الخاصة بكل كنيسة.

Twitter: @alqareah

II ـ التغييرات التي طرأت في القرن الأول لحكم السلالة المقدونية

1 ـ **مؤسسات مستقرّة**: توصّل باسيل الأول (Basile Ier) إلى الحكم من طريق اغتيال سابقه المحسن له ميخائيل الثالث، وقد أسس أعظم أسرة بيزنطية حاكمة عُرفت خطأ بأنها سلالة المقدونيين لأن باسيل كان من أصل أرمني. ولطول حكم هذه الأسرة ازداد الشعور بشرعيَّتها. استطاع المقدونيون أن يتخطّوا المشاجرة التي قامت حول الزواج بأربع نساء (tétragamie) لمّا جرؤَ ليون السادس (Léon VI) على تحدي الكنيسة، حين عقد زواجاً رابعاً من أجل إضفاء الصبغة الشرعية على ابنه اليافع قسطنطين السابع (Constantin VII)، والذي دعاه والده بلقبٍ وحيد هو البروفيري (بروفيروغنتس) (Porphyrogénète) [أي المولود في القصر أثناء حكم والده]، الذي ولد في غرف الأُرجوان في القصر الكبير في حين كان والده إمبراطوراً [قيصراً] يمارس ملء سلطاته. تكيَّف المقدونيون كذلك، من دون أن يفقدوا سلطانهم، مع العديد من عهود الوصاية، وكذلك مع سلسلة من القياصرة المشاركين لهم في الحكم والذين جاؤوا من الجيش أو من البحرية، وهم: رومان، ليكابين (Lécapène)، نقفور فوكاس (Nicéphore Phocas) ويوحنا تزيمسكيس (Jean Tzimiskès). ولم يضع حدّاً لحكم هذه السلالة سوى غياب الوريث.

2 ـ **بداية انتعاش اقتصادي**: كان طاعون 747–748 بداية نهاية الأوبئة الكبرى، وهذا ما أتاح العودة إلى ازدياد عدد السكان، وقد سهّل ذلك التقهقر التدريجي للغزوات الإسلامية الكبرى. إن أعمال البناء التي تناقصت كثيراً في العاصمة ما عدا أعمال صيانة الأسوار المكلّفة جداً، قد عادت إلى التقدّم ببطء منذ حكم قسطنطين الخامس، ثم ازدادت

Twitter: @alqareah

كثيراً في القرون التالية. أما القصر الكبير فقد أُضيفت إليه أجنحة كثيرة مثل الأبواق الثلاثة وكريانوس (Karianos) أيام القيصر ثيوفيلس (Théophile)، أما باسيل الأول فقد جدّد بناء العديد من الكنائس، وأشاد داخل القصر الكبير الكنيسة المسمّاة نيا Néa، المهيّأة لاستقبال سلسلة من ذخيرة تعود إلى شخصيات من العهد القديم لـ «الكتاب المقدّس» [توراة اليهود]، وذلك كردّ على بناء القيصر ميخائيل الثالث كنيسة الفنار التي جمع فيها ذخيرة تعود لشخصيّات من العهد الجديد. أما الأقاليم فإن المصادر والنقوش تؤكِّد قوّة تجديد عمليات البناء في آسيا الصغرى الغربية وكبادوكيا، بمبادرة من الأرستقراطيين، وتقدّمهما على البلقان، حتى وإن كان الاتجاه الرئيسي واحداً. وفي نهاية القرن العاشر الميلادي شيّدت المؤسّسات النسكية الأولى الكبرى (الأديرة) على جبل أثوس «Athos» الذي سيصبح قريباً المركز الرئيسي للرهبانيّات في كل الإمبراطورية بدل جبل الأولمب في بيتينيا «Bithynie». أسَّس القدِّيس أثناسيوس (Saint Athanase) لافرا «Lavra» بمساعدة نقفور فوكاس صديقه الذي أصبح القيصر، وبعد ذلك ببضع سنوات بنى أرستقراطيون جورجيون إيفيرون «Iviron» حتى أن الجبل المقدَّس احتضن سريعاً العشرات من الأديرة أو من الأبنية البسيطة المشادة على أرض خاصة بالرهبان ومحظورة على الخصيان والأولاد والنساء حتى يومنا هذا.

وكان ثراء القصر يتجلّى في الاحتفالات العامة حين كان سكّان شارع ميزي «Mésè» الشريان الرئيسي في العاصمة، والذي ينتهي بالقرب من القصر الكبير ومن كنيسة آيا صوفيا، يقومون بتزيين البيوت والحوانيت بالحرير. كان الحرير الأُرجواني وقفاً على القيصر يُصنع في مشاغل القصر ويُمنع بيعه، على عكس الحرير

Twitter: @alqareah

من بقية الألوان. هذه المنسوجات كانت تتطلّب وجود عدَّة مهن حِرفيّة كانت صفاتها محددة بدقة. كان الحرير الخام يأتي من بقاع الإمبراطورية، وكذلك من سوريا، كما كان الحال في العصر البيزنطي الأول. جعل القيصر ليون السادس حاكم المدينة يقرِّر نظاماً عُرف تحت اسم كتاب «رئيس الأبرشية»، الذي ينظِّم بعض المهن ومنها مهن الكماليات (صناعة الحرير والصاغة وأصحاب المصارف)، وكذلك المهن التي لا يستغني المواطنون عنها في حياتهم اليومية مثل مهنة الفرَّان. كان القياصرة يسهرون كي تبقى أسعار الحبوب، على الأقل في القسطنطينية، في متناول الناس وثابتة، هذا حصل خلال فترة حكم المقدونيين حيث كانت قطعة الذهب التي تساوي الراتب الشهري لعامل مؤهَّل تسمح بشراء نحو 150 كلغ من الحنطة. وكانت هناك كميّات من الاحتياطي تحفظ في مخازن عامة يأمر القيصر بفتحها في حالة القحط.

على عكس ما أكّده البعض أحياناً فإن الاقتصاد البيزنطي في العصر الوسيط كان يرتكز على حرية التبادل التجاري، حتى وإن تدخّلت الدولة بالسهر على أسعار بعض المواد الإستراتيجية، وكانت مصلحة الضرائب تفرض رسماً على الأعمال التجارية يساوي مبدئياً 10% من قيمة البضائع، وإن كان ناتج الأراضي الأميرية يدفع للموظَّفين كمحصولٍ سنوي، إضافةً إلى رواتبهم النقدية. كان الحاكم المكلَّف بأمن العاصمة يراقب التجَّار الأجانب، الروس والبلغار والسوريين، الذين لم يكن لهم حق الإقامة إلاّ لفترة محدودة.

3 ـ **أزمة اجتماعية؟**: كان القياصرة المقدونيون مشترعين كباراً، بدءاً من باسيل الأول وليون السادس، وقد قرَّروا تجديد الشرائع، وتركوا لنا آخر مدوّنة بيزنطيّة عظيمة هي مجموعة

Twitter: @alqareah

القوانين الملكيَّة، وقد أدّى بهم الأمر إلى إصدار سلسلة من القوانين الجديدة لصالح الملكية الخاصة الصغيرة. إن الأملاك الكبيرة ظلّت قائمة دوماً في بيزنطية، غير أن النسبة التي كانت تمثّلها بالنسبة إلى الملكية الخاصة الصغيرة تغيَّرت بحسب العصور، إلاّ أن الوثائق لا تسمح لنا بأن ندرس هذا التطّور بدقّة. ولكن يبدو أن الغزوات تجعل إدارة الأملاك الواسعة التي تقع غالباً بعيداً عن مكان إقامة صاحبها في غاية الصعوبة، وهذا سهَّل ازدياد الملكية الصغيرة للأرض. وحصل على العكس من ذلك في القرن العاشر، فلقد تطوَّرت الأملاك الشاسعة لصالح أصحاب الوظائف الكبرى والأديرة: أي ما تسمِّيهم القوانين «الأقوياء» على حساب «الفقراء»، وعلينا ألاّ نأخذ هذا التعبير الأخير بمعناه الاقتصادي الضيِّق، بل الأحرى بالمعنى الاجتماعي، إذ إن الفقير هو المحروم من حامٍ مؤثِّر، بالتالي من صلة بالقيصر.

ازدادت حركة تحويل صغار المالكين إلى فلاّحين غير مستقلّين خصوصاً عام 928م، بعد شتاءٍ رهيب أعقبته مجاعة. كانت هذه الكارثة وراء إجبار الفلاّحين على بيع أراضيهم بأسعار زهيدة للأقوياء الذين استطاعوا وحدهم أن يحتفظوا باحتياطي مالي. عبثاً حاول القياصرة خلال ثلاثة أرباع قرن أن يُصدروا القوانين لصالح الفقراء، ولقد ذهب القيصر نقفور فوكاس إلى حدّ منع الأديرة من حيازة ممتلكاتها.

لم يشتهر قياصرة بيزنطية بحماسهم الاجتماعي، فلماذا إذن هذا التشدّد؟ من ناحية أولى، فإن الضريبة العقارية الأهم في بيزنطية، حتى القرن العاشر، كانت تستند إلى الجماعات القرويّة للفلاحين المستقلّين. من ناحية ثانية، كان جنود الحاميات المحليَّة ينتمون إلى الفئة المتوسِّطة من أصحاب الأراضي، وكان اختفاؤها سيؤثِّر على حركة التجنيد في الجيش.

Twitter: @alqareah

هل أدّى فشل التشريعات إلى ازدياد سوء وضع الفلاحين؟ مبدئياً كان الفلاح غير المستقل يدفع إيجاراً إضافةً إلى الضريبة، بالتالي كان يتحمَّل ضريبة مالية أكبر. غير أنه كان يحظى بحماية ضدّ ابتزازات محصِّليها، كما أنه قد يستفيد أحياناً من قدرات سيّده في الاستثمار. إن وجود الأملاك الشاسعة كان من دون شك وراء تسهيل عملية تطوير تربية الماشية، خصوصاً في آسيا الصغرى. وقد سهّل كذلك الاستثمارات خصوصاً في مناطق تراس وبيتينيا القريبة من القسطنطينية حيث كان يقطن أغنى أصحاب الأملاك الشاسعة في الإمبراطورية. كان الإنتاج يتم بفضل المزرعة العائلية، فالرق الريفي كان قد زال، والموظف الذي يتقاضى راتباً شهرياً لم يكن متوفِّراً على ما يبدو إلاّ في الندرة. لم تتقدّم التقنيات الزراعية إلاّ قليلاً، نظراً لأن المحراث البسيط مُلائم للأراضي الخفيفة لسهول البحر المتوسط أكثر من المحراث ذي المقلب، مع الملاحظة أن الثور كان يستخدم في الأراضي الخصبة لوادي نهر منذريس «Méandre». لقد كانت هناك تحسينات بسيطة ولكن مستمرة تناولت الريّ وبناء الطواحين وانتقاء البذار ساهمت في زيادة الإنتاجية. يعتقد المؤرخّون اليوم أن نسبة إنتاجيّة القمح في بيزنطية كانت في الغالب تقترب من 1 إلى 5 لا من 1 إلى 3 كما قيل سابقاً. وربما وصلت نسبة إنتاجية أفضل الأراضي من 1 إلى 7. إلاّ أن علينا أن نشير إلى أننا في إمبراطورية واسعة مثل بيزنطية، تفتقد المعدّلات الوسطية الكثير من دلالتها. وكان الفلاحون، كما كان يفعل العديد من سكان المدن بدءاً من القسطنطينية المحاطة بحقول مزروعة بالبقول، يقومون بزرع حدائق كانت تمدّ الناس بقسمٍ هام من غذائهم اليومي.

لنضف إلى ذلك أخيراً بأنه خلال العصر البيزنطي الوسطي،

Twitter: @alqareah

لم تكن الأحوال الجويّة سيئة جداً، لذا فإن عدد المجاعات بقي متواضعاً حتى وإن كنا لا نستطيع تجاهله، بهذا الخصوص يبدو لنا القرن الثاني عشر الميلادي قرناً محظوظاً: كان الفلاح غير المستقل رجلاً حراً يستطيع أن يترك أرضه إن وجد من يحل محله. باختصار، لم يحصل من دون شك أي تقهقر اجتماعي، وهذا يفسِّر لماذا نرى في الوثائق أن المزارعين يختارون وضع الفلاح غير المستقل.

بعد باسيل الثاني الذي كان آخر قيصر يتّخذ إجراءات متشدِّدة ضد استغلال الأقوياء، نرى أن حركة تمركز الأراضي لم تتوقف، على الرغم من أن التشريع المقدوني ظل ساري المفعول. في القرن الثاني عشر أصبح وجود الملكيات الشاسعة هو المسيطر، فتغيَّرت الضريبة طبقاً لذلك، واستغل الأباطرة ممتلكات العرش وممتلكات المالية التي ازدادت كثيراً بفضل المصادرات العديدة لأملاك المتمرِّدين أوقات الفتوحات، وكذلك ممتلكات الذين ماتوا دون وارث. توقف القياصرة عن بيع الأراضي بسعر منخفض فاستعانوا بفلاحين غير مستقلِّين، ونظموا الأملاك الواسعة العامة إلى محافظات [على رأس كلٍّ منها قيِّم]، وحين استُغلَّت الأراضي العامة بهذه الطريقة زوّدت الدول بأكبر قسم من المداخيل المالية. إن المدن الشرقية التي استُعيدت في نهاية القرن العاشر الميلادي كانت أكثر نشاطاً من سائر مدن المقاطعات الأخرى للإمبراطورية، فساهمت في زيادة دخل الدولة، بل إن موظفاً بيزنطياً (رومياً) قد وُضع، لفترة وجيزة في حلب من أجل تحصيل الضرائب على عمليات المبادلة الخاصة بالمنتوجات الثمينة.

4 ـ **جيش جديد**: لقد اقتنى الجندي المحلِّي الأراضي

Twitter: @alqareah

تدريجياً، وفي القرن العاشر أُعفي من الضريبة مقابل قيامه بخدمته العسكرية (الإستراتية). إن التراجع الحتمي للملكية الخاصة الصغيرة أدّى إلى إضعاف الجيوش المحليّة. وحامل الإستراتية لم يعد يرغب في أن يجنّد، وكان يفضِّل غالباً أن يشتري غيابه عن الجيش، إما بإرسال بديل عنه أو بدفع مبلغ من المال كتعويض، وكان أصحاب الخدمة هؤلاء قليلي التدريب، باستثناء أقلّية منهم تحيط بالقائد الإستراتيجي. إن قصص العمليات العسكرية تبرهن على أن الضباط البيزنطيين لم يعودوا يعتمدون على هؤلاء الجنود أصحاب الخدمة في شنّ هجوماتهم الكبرى ضدّ المسلمين، نظراً لأن مثل هذه الحملات كانت تتطلّب من المقاتل الابتعاد لفترة طويلة عن بيته. لقد عمّم القياصرة كما فعل نقفور فوكاس مثلاً فرض الضرائب على أصحاب الخدمة من أجل تمويل تجنيد المرتزقة وتطويرها. لقد خاض القياصرة العسكريون الكبار فتوحاتهم بين عام 963م وبين عام 1025م وهم على رأس مثل هذه الفرق من الجنود المحترفين.

بسبب الفشل الذي مُنيت به الجيوش البيزنطية (جيوش الروم) في القرن الحادي عشر الميلادي، انتقد غالباً بعض المؤرِّخين هذا التخلّي عن الجيش «الوطني»، نظراً لأن العديد من الأجانب كانوا قد جُنِّدوا، غير أن العديد من اليونانيين كانوا يشكّلون أيضاً فرقاً من المرتزقة (تاغماتا tagmata)، مثل مرتزقة تسالونيكي ومقدونيا. علينا أن نضيف إلى ذلك أن مفهوم «الغريب» في إمبراطورية متعدِّدة الأجناس هو مفهوم نسبي. في الواقع كان المرتزقة حين كانوا يتلقّون رواتبهم بانتظام، يحاربون بالشجاعة عينها التي كان يقاتل فيها أصحاب الخدمة المحلّيون، أضف إلى ذلك أن القياصرة كان في استطاعتهم أن يختاروا

Twitter: @alqareah

أفضل المتخصّصين، وهم في القرن الحادي عشر الفرسان النورمانديون المدجّجون بالأسلحة والنبّالون الخيّالة البتشينغ petchénègues [الاتراك] أو العرب أو النبّالون المشاة الأرمن. وقد كانت الفرق الأجنبية في غالب الأحيان تحت إمرة ضابط ينتمي إلى إثنية بعينها، غير أنها ظلّت تحت سلطة قيادة أركان بيزنطية (رومية). هذه الفرق من الجنود كانت تتميّز عن الجنود الاحتياطيين الذين كانوا يجنَّدون فقط لفترة حملة معيّنة ويحتفظون بقيادة خاصة بهم. لقد اختفت الجيوش المحلّية نهائياً خلال القرن الحادي عشر الميلادي نظراً لأن التنظيم الجديد تزامن مع فعالية أفضل.

5 ـ **الحروب الحدودية وأول النجاحات**: واجه البيزنطيون (الروم) على الجبهة الشرقية، التي كانت لا تزال تحظى بالأولوية قبل كل شيء، قوى أمير ميليتينا «Mélitène» وطرسوس «Tarse»، وبشكل مؤقت قوى البولسيين، وهم هراطقة ثنائيون (حركات تعتقد بأن هناك عالمين يتعايشان: الأول جيد صالح خلقه اللّه، والآخر أرضي، بالتالي هو سيِّئ وقد خلقه الشيطان)، وكانوا قد هربوا من اضطهاد القيصر بهم. كانت الحملات تشن كل سنة تقريباً، ولكن على مستوى محدود جداً. هناك عنصر جديد، وهو أن قادة جنود الحدود كانوا يردّون الهجوم ويتخطّون بدورهم ممرّات طوروس ليحتلّوا كيليكيا «Cilicie» أو بلاد ما بين النهرين العليا. الكثير من الأرمن كانوا يأتون ليقاتلوا غير المؤمنين، بعد أن تخلّص بلدهم بمساعدة بيزنطية من الحكم العربي. كان السكان معتادين على مثل هذا النوع من الحرب المحدودة التي تنشب على الحدود: حين يقع هجوم معادٍ كان هناك مراقبون يخبرون القرويين بذلك، فيلجأ هؤلاء مع ماشيتهم إلى أماكن آمنة، إلى

Twitter: @alqareah

الجبال أو القلاع أو القرى المخفيّة تحت الأرض، كما هو الحال في كبادوكيا. كانت الخسائر محدودة، وكان يتم تبادل الأسرى في فترات منتظمة تقريباً. خلقت هذه التعبئة الحربية مجتمعاً خاصاً: الجنود فيه مرتبطون شخصياً بقادتهم الذين كانوا يهبونهم الغنائم التي أُخذت من العدو؛ أما كوادر هذا الجيش فقد أتت من بعض العائلات الكبرى مثل آل دوكاي (Doukai) وأرغيروا (Argyroi) وسكليروا (Sklèroi) وفوكاس (Phocas) وغيرها من العائلات. لم تستطع القسطنطينية التي لم تكن تتعرّض للهجمات المعادية أن تفهم الحالة النفسية لهؤلاء المقاتلين، وهم أبطال مسيحيّون يواجهون مسلمين تحرِّكهم روح الجهاد. على العكس من ذلك، فإن حدث أن قائداً متمرِّداً التحق بمعسكر المسلمين كان هؤلاء يرحِّبون به دوماً، وغالباً ما كانوا يقلِّدونه مناصب مهمة. كذلك فإن بعض العرب لم يتردّدوا في اجتياز الحدود، ولقد لاحظنا بين كبار الموظّفين البيزنطيين في ذلك العصر وجود أسماء تدلّ على أصلها العربي.

في بعض الأحيان كانت الجيوش المحلّية تُعزَّز بجنود مرتزقة. كان زمام المبادرة في يد البيزنطيين حتى أنهم احتلّوا ميليتينيا «Mélitène» وهي مفتاح الطريق نحو الفرات، إلاّ أنهم كانوا يتلقّون الضربات كذلك. فلقد سقطت تسالونيك عام 904م على يد مرتد، وبيع قسم من سكّانها كعبيد في جزيرة كريت «Crète». ولم يكن باسيل الأول قادراً على إنقاذ مدينة سيراكوزا ولا صقلية، غير أنه استعاد مدينة باري «Bari» التي كانت قد وقعت لفترة بين أيدي المسلمين.

أما في البلقان فإن بلغاريا وقعت بين يدي سمعان وهو ابن بوريس، وكان قد تلقّى تعليمه في القسطنطينية، وقام بسياسة توسّعية. لقد دعا ليون السادس (Léon VI) إلى تحالف ظرفي

Twitter: @alqareah

تمشّياً مع تقاليد دبلوماسيّة الإمبراطورية مع الهنغاريين، وهم شعب وثني من عِرق تركي مقيم منذ فترة وجيزة شمال نهر الدانوب، إلاّ أنه هُزم واضطر إلى التفاوض. وفي عهد وصاية قسطنطين السابع عاد الصراع من جديد لأسباب اقتصادية وهي التحكّم في طرق التجارة، وانتصر سمعان ثانيةً في أنخيالوس «Anchialos» عام 917م واحتل مدينة أندرينوبولي [أَدَرْنَة في تركيا]. وقد تابع هجومه أثناء حكم رومان ليكابين، وفي عام 924م عسكر جيشه أمام القسطنطينية، وادّعى أنه قد أصبح «قيصر البلغار وإمبراطور [قيصر] الرومان»: ولمّا لم يكن يملك الوسائل لأخذ المدينة بقوّة السلاح، لعدم حيازته على أسطول، انسحب سمعان، بعد مقابلة مع ليكابين وبعد حصوله على وعد بدفع جزية سنويّة له والاعتراف بمعظم البلاد التي فتحها. ومات عام 927م بعد أن ترك بلغاريا وقد ضعفت بسبب هذا المجهود الحربي الضخم وانتشار الهرطقة الثنائية للبوغوميل (Bogomiles)(*)، فلم يكن أمامها سوى اختيار السلم، خصوصاً وأن بطرس (Pierre) ابن سمعان تزوّج إحدى حفيدات رومان لوكابين.

III ـ أَوْجُ العصر الوسيط (959-1057)

1 ـ **انتصار على المسلمين**: تولّى إمرة الجيوش الشرقية البيزنطية، في النصف الثاني من القرن العاشر قادة أَكْفاء بدرجة عالية، وينتمون إلى أرستقراطية الأناضول. تميّزت من هؤلاء عائلة

(*) البوغوميل كانوا جماعة يؤمنون بصراع مبدأي الخير والشر، كما المانوية، ويعني اسمهم في لغتهم البلغارية أصدقاء الله. (المترجم).

Twitter: @alqareah

معيّنة هي أسرة فوكاس، التي ستوصل البلاد في ما بعد إلى ما دعاه غوستاف شلومبيرغر (Gustave Schlumberger) بـ «الملحمة البيزنطية». كانت الظروف مهيأة: فقد امتلأت بلاد الأناضول بالسكان من جديد وعرفت انتعاشاً اقتصادياً، فاستطاعت أن تمدّ الجيوش بجنود أكثر عدداً. أما الجبهات الأخرى فكانت هادئة نسبياً، إن استثنينا عرب أفريقيا وصقلية.

ازداد عند المسلمين تضعضع الخلافة العباسية، وتوقفت جيوش بغداد عن التدخّل ضد بيزنطية، وخفّت روح الجهاد كثيراً خارج مناطق الحدود. إن عملية استعادة البلدان التي قامت بها بيزنطية كانت ستكون أسرع وأبعد لولا المقاومة الرائعة التي قام بها أمير يقيم على الحدود هو الأمير الحمداني سيف الدولة، سيّد حلب وأَنطاكية الذي عرف كيف يجمع من جديد متطوِّعي الجهاد كي يقوم بهجمات داخل الأراضي البيزنطية [بلاد الروم].

عُيِّن نقفور فوكاس قائداً للجيش فقام مع أخيه ليون بمعارك ظلّت غير حاسمة لفترة طويلة، إلاّ أنهما انتهيا إلى إلحاق هزائم فادحة بالحمداني. وهي تشير إلى القوة المستعادة للإمبراطورية البيزنطية. ولقد نجح نقفور بفضل عملية إنزال لعشرات آلاف الرجال، وهي عملية لوجِستيّة رائعة، أن يستعيد كريت عام 961م، فتحسّن بذلك أمن بحر إيجه، وساهم في تجديد التجارة البحرية الكبرى. بعد ذلك بأربع سنوات عادت قبرص بيزنطيَّة. وفي عام 963م، وكان نقفور يتولّى الحكم إلى جانب باسيل الثاني (963–1025)، تابع هجومه ضد المسلمين وعبر ممرات طوروس التي كانت تشكِّل الحدود منذ قرون عديدة، واحتل كيليكيا وشمال سوريا واستعاد أَنطاكية، وهي مركز البطريركية، وجعل من إمارة حلب دولة تابعة للإمبراطورية. أما

Twitter: @alqareah

خليفته يوحنا تزيميسكس (969–976)، فثبّت التقدّم البيزنطي حين ردّ هجوم الفاطميين الذين استقرّوا حديثاً بمصر، وقام شخصياً بقيادة جيش في سوريا وصل إلى دمشق وفي هذه اللحظة التي سبقت الحروب الصليبية لم تعد فكرة استعادة القدس فكرة لا يمكن أن تخطر على بال. ومن أجل إعمار الأراضي المستعادة لجأت السلطات إلى المسيحيين الذين كانوا قد بقوا تحت الهيمنة الإسلامية. كانت غالبية هؤلاء من المسيحيين اليعاقبة فجاؤوا بأعداد كبيرة ليستقرّوا بدوقيّة أنطاكية التي استُحدثت، وقد أسَّسوا بموافقة القيصر أُسقفيّات جديدة، وأديرة كانت بمثابة مراكز نشر للثقافة السريانية.

لم يشنّ القياصرة الذين تلوا سوى عمليات عسكرية محدودة، كانت فاشلة في غالب الأحيان، لأن باسيل الثاني بنفسه فشل في احتلال طرابلس، وكان رومان الثالث مدعاةً للسخرية حين هزمه آل مرداس في حلب، وهم أمراء متواضعون، وذلك حين حاول طردهم من مدينتهم. وفي المقابل، فإن مدينة أوديسّا الهامّة الواقعة في بلاد ما بين النهرين والتي يسكنها السريان والأرمن أُلحقت بالإمبراطورية عام 1031م. إن آخر تمدّد في الشرق قد تمّ على حساب الممالك الأرمنية. بفضل مساعدة الإمبراطورية استطاع الأرمن أن يتخلّصوا من السيطرة العربية خلال القرن العاشر، إلاّ أنهم ظلّوا منقسمين إلى ممالك عدّة متناحرة في أغلب الأوقات. وأثناء حكم باسيل الثاني سلّم سيناخيريم (Sénachérim) مملكته فسبوراكان «Vaspourakan» إلى القيصر عام 1022م، بعد أن خاف من هجوم الأتراك عليه، وتلقّى مقابل ذلك بعض الألقاب وأملاكاً شاسعة في كبادوكيا. أما غاجيك (Gagik) ملك آني «Ani» ففقد استقلاله عام 1045م. لم ترُق هذه

Twitter: @alqareah

التنازلات عن الأرض لقسم من السكان الأرمن الذين ساندتهم النخب العسكرية والدينية، ومن أجل تخفيف حدّة هذه المعارضة فقد منح القياصرة رؤساء الأرض ومنهم غاجيك ملك آني وكبار ضبّاطه الألقاب والأملاك العديدة في كبادوكيا دوماً، وقد سمحت هذه السياسة بإضعاف المقاومة المحلّية، وبتعزيز الأناضول والسيطرة على الأرستقراطية السابقة التي كانت السبب في العديد من المتاعب لباسيل الثاني.

2 ـ **السيطرة على البلقان**: لقد استعاد البيزنطيون (الروم) تدريجياً احتلال الأراضي التي استولى عليها السلاف، وأسّسوا جيوشاً محليّة وقد منحوها جيوباً تُدار بحريّة كبيرة، وذلك مقابل جزية وفرقة عسكرية مثل فرقة الميلنغ Mélingues والإيزير Ézérites في البيلوبونيز. غير أنَّ العلاقات بالبلغار هي التي كانت تحدِّد الوضع في البلقان، فمنذ موت القيصر سمعان كان السلام يسيطر مقابل جزية بخسة يدفعها البيزنطيون. رفض القيصر نقفور فوكاس دفع هذه الجزية لأن ميزان القوى الجديد لم يعد يبرِّرها، ولقد استدعى من أجل إخضاع البلغار، الروس أتباع أمير كييف سفياتوسلاف (Sviatoslav)، مع أنهم كانوا وثنيين. وقد نجح هؤلاء في أبعد من كل ما كان يؤمل منهم، فدخلوا بلغاريا واستولوا على عاصمتها بريسلاف «Preslav»، غير أنهم رفضوا مغادرة بلد بدا لهم في غاية الثراء. وقد كان على خليفة نقفور فوكاس، وهو يوحنا تزيمسكيس، إخراجهم بعد صراع مرير. وكانت بلغاريا عام 972م قد أُخضعت بأكملها تقريباً، غير أن يوحنا تزيمسكيس اضطر إلى أن يتنازل للروس، وأن يوقّع معهم من جديد معاهدة تجارية تسمح لتجارتهم بالإقامة بالعاصمة.

غير أن البلغار استعادوا حريتهم بفضل صموئيل الذي طرد

Twitter: @alqareah

البيزنطيين وشكّل دولة جديدة، غير أن قلبها كان هذه المرّة في منطقة أوخريد «Ochrid»، الواقعة إلى الغرب مما كان في أيام سمعان. وقد نشب صراع طويل بينه وبين باسيل الثاني الذي افتتح عهده الشخصي عام 986م بحملة فاشلة ضد البلغار. بعد ذلك قام القيصر وقادته العسكريون بهجومات طويلة وانتهوا بامتصاص بلغاريا كلها عام 1018م، من دون أن يكون مثل هذا الفتح هو الهدف في البداية، ذلك أن الحرب قد جرت بحسب مبادرات القيصر البلغاري. أخيراً، وفي عام 1014م حقّق باسيل انتصاراً حاسماً على جيش صموئيل (Samuel)، وقد فُقِئَت أعين قسم من أسرى هذا الجيش. بعد ذلك بأربع سنوات، أي في عام 1018م استسلم آخر أعضاء الأسرة الحاكمة واندمجوا سريعاً في نخب الإمبراطورية.

لأول مرة منذ عهد موريس أصبح الدانوب يشير إلى حدود الإمبراطورية. ولقد حرص باسيل الثاني على منح الكنيسة البلغارية وضعاً خاصاً، وبذل أقصى جهده كي لا يغيّر الضرائب التي كانت تُدفع أيام الاستقلال. وعلى الرغم من عدّة حركات تمرّد حصلت في القرن الحادي عشر الميلادي، فقد ظلّ البيزنطيون يديرونها حتى عام 1186م. وبعملية الضم هذه زادت الإمبراطورية من قسمها الأوروبي الذي كان يمثّل ثقلاً موازناً لآسيا الصغرى، وجعلها تحتفظ بمدن الدانوب السفلي التي كانت تنعشها عمليات التبادل التجاري مع شعوب السُهب (Steppe). والحال من دون شك هو أن التوسع الديمغرافي والاقتصادي كان الأشد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، في بلاد البلقان. حين عادت بيزنطية للسيطرة من جديد على قسم كبير من الساحل الدلماطي، وعلى المحور الرئيسي للبلقان، وعلى طريق أغناطيا التي كانت تصل دراخيون «Dyrrachion» بتسالونيكي ثم بالقسطنطينية، فإنها استفادت كذلك من الديناميكية المبكرة للمدن الإيطالية.

Twitter: @alqareah

لقد استُكملت حماية البلقان من طريق تقوية المواقع البيزنطية في إيطاليا التي هدّدها لفترة عرب صقلية وإفريقيا، وفي الشمال الأمراء اللومبارديون والأباطرة الجرمان. بالفعل، فمنذ أن تلقّى أوتّون الأول (Otton Ier) عام 962م في روما تاج الإمبراطورية أصبحت إيطاليا من جديد موضوع خلاف مع البيزنطيين. ولقد هاجم أوتان الثاني (Otton II)، على الرغم من حصوله على يد أميرة بيزنطية هي ابنة أخ يوحنا تزيمسكيس، المدن المحصّنة ولكن دونما طائل، قبل أن يُهزم هزيمة شنعاء في كلابريا على يد الفاطميين الأفارقة عام 982م. وفي أيام باسيل الثاني عرفت كل من مقاطعتي بوليا وكلابريا السلام ووضعتا تحت سيطرة الإمبراطورية. وكان باسيل الثاني قبل وفاته يحضّر لاستعادة صقلية عام 1025م إلاّ أن الأمر لم يحصل بنجاح إلاّ بعد وفاته ببضع سنوات، على يد جورج منياكس (Georges Maniakès)، ثم أنه توقف بسبب النزاعات الداخلية.

في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وعلى الرغم من ظهور أخطار جديدة، ممثَّلة في النورمانديين في إيطاليا الجنوبية والبتشينغ [قبائل تركية] الرُحّل على حدود نهر الدانوب، وأول خروق للأتراك في آسيا الصغرى، كان يخالج البيزنطيين شعور بأنهم يملكون بعد اليوم حدوداً آمنة جداً على الدانوب والفرات. ولكنهم حين نزعوا الطابع العسكري عن مواقعهم المحلية السابقة الكبرى، وكذلك عن القسطنطينية عينها ركّزوا جيوشهم النخبوية على الحدود، وخصوصاً للدفاع البيزنطي في الشرق.

3 ـ **تنصير الروس**: إن الوصول المفاجئ عام 860م للرووس «Rhôs» أو الروس «Russes» وهم شعب اسكانديناڤي، أمام القسطنطينية فاجأ سكان العاصمة وأرهبهم. وبعث البطريرك

Twitter: @alqareah

فوتيوس بإرسالية همّها تحويلهم إلى المسيحية، وهو يأمل في أن يخفف من حدّة توحّشهم، وأن يدخلهم في العلاقات الدبلوماسية للناس «المتحضّرين»، ونراه في إحدى رسائله يُسرّ كثيراً بنجاحه. هذا التنصير الأول في نهاية القرن التاسع لم يترك أي أثر، وقد اختفى المؤمنون الجدد من دون شك مع اختفاء أول مقاطعة روسية أقيمت حول بحيرة لادوغا «Ladoga» في شمال روسيا. ثم ظهرت دولة روسية جديدة، وأنشأت عاصمتها في كييف، ولم تكن أقل خطورة في شن هجوماتها ضد القسطنطينية. قام الروس بهجمات متعدّدة، وكانوا قادرين وهم يركبون سفنهم الصغيرة المكوّنة من خشبة واحدة (monoxyles) على أن يجتازوا نهر الدنيبر «Dniepr» وأن يصلوا إلى سواحل البحر الأسود، فأجبروا البيزنطيين، عدّة مرات، على التنازل وتوقيع معاهدات تجارية منظَمة جداً من دون شك، غير أن الروس اضطروا بهذه الطريقة إلى أن يجاروا التجّار المسيحيين في كييف كما في القسطنطينية. وقد تحوّل بعضهم إلى المسيحية بصفة شخصية، كما حصل مع الأميرة أولغا (Olga)، غير أن ابنها سفياتوسلاف (Sviatoslav) بقي متمسكاً مع حرسه الشخصي بالآلهة التقليدية للإسكندنياف. وقرّر فلاديمير (Vladimir)، حفيد أولغا، أن يتعمد ففاوض باسيل الثاني حين كان هذا الأخير مشغولاً بتمرّد بارداس فوكاس. وحصل من القيصر على يد أخته آن (Anne)، وهي أميرة بورفورية porphyrogénète [أي مولودة أثناء حكم والدها]، وهذا امتياز كبير، وضع فلاديمير في رتبة أعلى من كل ملوك السُهب. أرسل فلاديمير مقابل ذلك إلى القيصر 4000 مقاتل شكّلوا فرقة الفارانج، وقد أُنيط بها في ما بعد، حراسة القصر. إن تنصير فلاديمير عام 988م وتأسيس الكنيسة الروسية التي كان كل مطارنتها الأولين تقريباً، المقيمين بمدينة كييف، من اليونان، طيلة القرن الأول من

Twitter: @alqareah

وجودها، فتح حقلاً واسعاً من التوسّع أمام تأثير القسطنطينية.

4 ـ **قوة الأرستقراطية**: ظهرت منذ عهد الأيصوريين أرستقراطية جديدة من أصل عسكري، لأنها كانت تقوم بالدور الأول عند الحروب ضد العرب. وقد تبنى أشهرهم اسماً يمكن نقله ويُعلن عن مجد العائلة، وقد انتشرت هذه العادة الأرستقراطية تدريجياً إلى أن عُممّت في القرن الحادي عشر الميلادي، حتى عند المدنيين. ولقد شكّل القادة الاستراتيجيون وتابعوهم مجموعة وراثية تقريباً. وقد بقيت أعلى المناصب في أيدي بضع عائلات، شرط أن يحظوا بدعم القيصر الحاكم في ذلك الحين. وهكذا فإن ارتقاء عائلة فوكاس يتبع الذُّرية المقدونية. وأول واحد منهم لفت انتباه باسيل مؤسس السلالة. وأصبح ابنه نقفور القديم القائد المحبب عند ليون السادس ابن باسيل. وحين اضطر قسطنطين السابع، وهو ابن ليون السادس، إلى أن يتّخذ قيصراً يشاركه الحكم هو رومان لوكابين، أُبعد ابنا نقفور القديم وهما ليون وبارداس القديم (Bardas l’Ancien)، ولم يعودا إلى نيل الحظوة إلى أن أصبح قسطنطين السابع السيد المطلق السلطة. عندها رقّي قائداً عاماً وتسلّم رئاسة الجيش الأوسط وعيّن كل واحد من أبناء هذا الأخير ـ وهم نقفور وليون وقسطنطين عاملاً على إحدى ولايات الشرق: الأناضول وكبادوكيا «Cappadoce» مهد الأسرة، وسلوقية «Séleucie». أخيراً، وحين ترك رومان الثاني ولدين قاصرين عام 963م، عندها وبشكل طبيعي، أصبح نقفور فوكاس الذي كان قائداً عاماً للجيش، قيصراً مشاركاً.

استطاع قسم من طبقة الأعيان القديمة في القسطنطينية أن يتخطى من دون شك اضطرابات القرنين السابع والثامن الميلاديين. كانوا يملأون مكاتب العاصمة وقد شغلوا بعض

Twitter: @alqareah

مناصب التراتبية الكنسية. وخير دليل على ذلك عائلة البطريرك فوتيوس (Photiôs): بين الجيل الأول الذي يرتقي إلى نهاية القرن السابع الميلادي وبين الأجيال الأخيرة المعاصرة لباسيل الثاني تعدّ العائلة الكثير من أصحاب المناصب العليا، والعديد من كبار الأشراف، وبطريركاً في القرنين الميلاديين السابع والثامن، وكان حامل مثل هذا اللقب يحتل المركز الأول في البلاط، وأحد كبار رجال القانون القاضي كوزماس (Cosmas) وأربعة بطاركة، تارايزي (Taraise) في عهد إيرين، فوتيوس في عهد ميخائيل الثالث وباسيل الأول، سيسينيوس (Sisinnios) وسرجيوس وقد عُيّنا في عهد باسيل الثاني.

لقد حاولت النخب العسكرية والمدنية أن تحافظ على الوظائف السلطوية ضمن عائلاتها، نظراً لأنه كان على الجيل أن يعيد تكوين ثروات تتبدد حين تتوزع بالتساوي بين الأولاد بمن فيهم الفتيات، بحسب القانون الساري المفعول. كانت الزيجات التي تجمع عائلات الدرجة العليا تساهم في المحافظة على مستوياتها لأن الفتيات كنَّ يجلبن معهن المهر، ولكن وفي نهاية الأمر، فإن الحظوة لدى القيصر هي التي كانت تغني المرء بأقصر وقت. وكان القيصر نفسه هو الذي يقدم في الغالب مكان الإقامة الفخم إلاّ أنه كان يعطيه على أساس عمري (طوال عمر المرء)، وهذا ما كان يجنّبه الكثير من الخسران. مما لا شك فيه أن كل الأعيان وهم «الأقوياء» كانوا يحبّون شراء الأراضي، خصوصاً في مقاطعتهم الأصلية كي يقوُّوا بذلك تجذّرهم المحلّي، كما حصل مع آل فوكاس وأنسبائهم آل مالينوي (Maléïnoi) في كبادوكيا، أو آل دوكاس في بافلاغونيا «Paphlagonie». غير أن الريع العقاري ظلّ ضعيفاً بالنسبة إلى المداخيل التي كانت تأتي من الوظائف الكبرى، ومن المناصب العليا. إن ضرورة طلب تعيين أولادهم في مثل هذه

Twitter: @alqareah

الوظائف العليا كانت تعطي للقيصر ورقة رابحة هامة، كي يتأكّد من ولاء هذه الأُسر القوية.

5 ـ **تمركز النخب**: شهد باسيل الثاني تغييرات كبيرة في العلاقات بين الأرستقراطية العسكرية وسلطة القيصر. لم يستطع باسيل أن يحكم نظراً لصغر سنه، فعاش فترة طويلة تحت وصاية نقفور فوكاس ويوحنا تزيمسكيس وأخيراً باسيل ليكابين (Basile Lécapene)، وهو أخو جدّه. وقد جاء أول تنبيه لهذا الأخير حين تمرّد بارداس أسكليريوس (Bardas Sklèros) عام 976م، وكان أحد أبطال الحرب ضدّ الروس عام 972م. إلاّ أنه هزم بعد ثلاث سنوات على يد بارداس فوكاس ابن أخ القيصر نقفور الذي كان قد عيّن قائداً عاماً للجيوش، وقد استعان بصداقاته الأيبيرية [إسبانية وبرتغالية] من أجل الحصول على إمدادات حاسمة. وحين قرّر باسيل الثاني أخيراً أن يأخذ بيديه دفّتي الأمور كان قادته العسكريون المنتمون إلى العائلات الشرقية الكبيرة يتوقّعون منه أن يوجِّه حملته نحو الفرات، إلاّ أنه هاجم البلغار بدل ذلك. هُزم وواجه استياء الضباط الذين اختاروا كرئيس بارداس فوكاس، وكان ذلك عام 986م. مرّة جديدة نهبت آسيا الصغرى مدة ثلاث سنوات بسبب الحرب الأهلية، وفي النهاية لم ينقذ باسيل الثاني وأخاه قسطنطين الثامن سوى الثروة القيصرية التي أتاحت لهما دفع نقود لجنود من الفارانج أرسلهم أمير كييف.

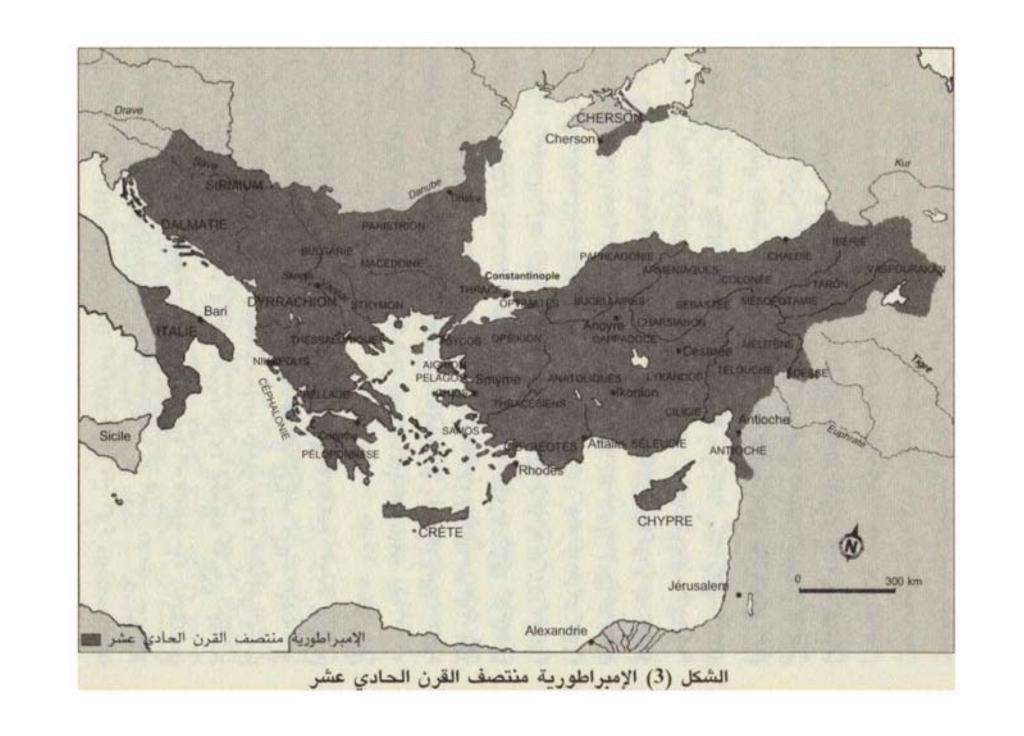
بعد أن انتصر باسيل الثاني لم يلاحق كل أرستقراطية آسيا الصغرى لينتقم منها، وهي التي كانت قد أيّدت القادة العسكريين المتمرّدين، بل أنه لاحق أسرة فوكاس والقريبين منها، والذين كانت تشملهم حماية الأسرة المقدونية ويتجرّأون على أن يضعوا أنفسهم كمنافسين. لقد فقدوا القسم الأكبر من ممتلكاتهم من طريق المصادرة، واختفوا من الدرجة العليا للنخبة. قام القيصر

Twitter: @alqareah

بتوزيع جديد للأوراق، وقد شجّع ظهور عائلات جديدة مثل آل كومينيس وآل دالاسينوس (Dalassènoi) وآل بوتانياتاي (Botaneiatai) وآل ثيودوروكانوس (Théodôrokanoi)، في حين أن عائلات أخرى مثل آل ميليسينوس (Mélissènoi) وآل أرغيروس (Argyroi) وأسكليروس (Sklèroi) ظلّت تحتفظ بمراكزها. وقد دبّر باسيل الثاني بنفسه زواج بعض هؤلاء من أميرات بلغاريات. إن إعادة الترتيب هذه كانت أساسية نظراً لأنها وضعت في أماكنها كل جهاز ملاك سلالة آل كومينيس. إن تحطيم الأرستقراطية كان أمراً لا يمكن تصوّره لأنها هي التي كانت تزوّد الدولة بجهازها الإداري.

منذ عهد باسيليوس أخذ العديد من ممثّلي السلالات الكبرى يأتون غالباً ليقطنوا في العاصمة حيث كانوا يتدخّلون لدى القيصر كي ينالوا منافع لأقاربهم. وأخذت العائلات ذات التقاليد العسكرية تتعايش أكثر فأكثر مع الأُسر الأخرى صاحبة التقليد المدني، وتزايد التزاوج بين المجموعتين مما شوّش على التمييز بينهما. ولقد ترك البعض خلال القرن الحادي عشر للميلاد الوظائف العسكرية لصالح المناصب القضائية وخصوصاً المالية، لأنها كانت تدرّ ثروة أكبر. إن الخسائر في صفوف الضباط كان يعوّضها إدماج بعض الأجانب في صفوف الجيش لكي يستمر التقليد البيزنطي بالترقّي عن طريق امتهان وظيفة السلاح. بالفعل، فإن المجتمع البيزنطي، وبدرجات مختلفة بحسب العصر ـ بعد القرن الحادي عشر المزدهر جاء الثاني عشر أكثر شدّة ـ ظلّ منفتحاً على المواهب سواء أكانت عسكرية أم عقلية ثقافية.

Twitter: @alqareah



الشكل (3) الإمبراطورية منتصف القرن الحادي عشر

Twitter: @alqareah

الفصل الرابع

بيزنطية بين اللاتين والأتراك

(1057 ـ 1453)

علينا أولاً أن نبرِّر جمعنا في معالجة واحدة القرون الأربعة الأخيرة للإمبراطورية التي أدّت إلى زوالها، علينا ألاّ نستنتج أننا أمام عملية احتضار طويلة، نظراً لأن عهد أسرة كومنينس كان مزدهراً، غير أن القياصرة أثناء هذه القرون اضطروا إلى خوض الحرب على جبهتين في وجه اللاتين والأتراك، في صراعات ذات طبيعة مختلفة، ولكنها تهدِّد جوهر الإمبراطورية في اقتصادها وخاصّيتها الدينية من جهة الغرب، وفي أقاليمها وحرية مواطنيها من جهة الأتراك. لقد خاضت الدولة مثل هذا الصراع بنجاح يكبر أو يصغر بحسب الخيارات السياسية المتَّخذة، ولكن في نهاية المطاف كان هذا الصراع قاتلاً بالنسبة إلى الإمبراطورية العجوز.

I ـ المحافظة على التوازن (1057-1180)

1 ـ **أزمة الأسرة الحاكمة**: بقي باسيل الثاني عازباً ولم يهتم بتزويج بنات أخيه، وحين قرّر أخوه قسطنطين، وهو على فراش الموت، أن يسلِّم السلطة إلى رومان أرغيروس (Romain

Twitter: @alqareah

Argyros) وجعله يتزوّج ابنته زووي (Zôê)، غير أن الوقت كان قد فات لتستطيع أن تنجب. وهكذا أصبحت الأسرة المقدونية الحاكمة سائرة في طريق الانقراض، فبدأ السباق نحو العرش. واتخذ هذا السباق إما الطريق الشرعية، وهي الزواج من إحدى القيصرتين الشرعيتين زووي أو ثيودورا أو جعلهما تتبنّيان أحدهم، وإما طريق قوة السلاح، مما تسبّب بانقلابات عسكرية. فبين عام 1025م وبين عام 1081م لم يستطع أي قيصر أن يحتفظ بالسلطة فترة طويلة، باستثناء قسطنطين مونوماك (Constantin Monomaque). جرّ الصراع عائلات الأرستقراطية العليا لتتدخّل، ولم تتدخّل فقط العائلات التي كانت قد ساهمت في الصراع ضدّ المسلمين في الأناضول وهي عائلات ديوجينيس (Diogénai) وميليسينوس (Mélissènoi) وبرتازي (Bourtzai) وتارونيتي (Tarônitai) ودلاسينس (Dalassènoi)، بل تدخّلت كذلك مجموعة جديدة أطلق عليها معاصروها لقب «مقدونية»، وكانت تقطن في أندرينوبولي [أَدرَنَة الحالية في تركيا] وهي عائلات تورنيكيوس (Tornikioi) وفاتتزيس (Vatatzès) بريانيوس (Bryennioi) التي كانت قد استفادت من خبرة في المشاركة في حروب البلغار. أخيراً، فإن البيروقرطية في القسطنطينية نفسها قد أفرزت سلالات غنية مثل أسرة كيرولير (Cérulaires) أو أسرة مكرمبوليتي (Makrembolitai). وكان القصر يجذب كذلك العسكريين مثل أُسرة كومنينس. إن صعود القسم الأكبر من مثل هذه الأرستقراطية كان يعود إلى عهد باسيل الثاني الذي كان قد اهتم مثلاً بتربية القيصر القادم إسحق كومنينس (Isaac Comnène) وأخيه يوحنا. ولقد نشب العديد من حركات التمرد العسكري التي أضعفت جيوش الإمبراطورية، هذا، في حين كان الأعداء يتدافعون على الحدود. أخيراً وفي عام 1081م استولى قائد شاب هو الكسي

Twitter: @alqareah

كومنينس (Alexis Comnène) على السلطة، وكان مرتبطاً من طريق الزواج بقسم كبير من الأرستقراطية، وقد أسّس أسرة حاكمة جلبت قرناً من الاستقرار والتجديد، أثناء فترة حكم ابنه يوحنا الثاني (Jean II) وحفيده منويل (Manuel).

2 ـ **دخول الأتراك**: إن الشرق المسلم الذي كان يعيش حتى تلك الفترة تحت تهديد غزو بيزنطي، انقلب فجأة بسبب الفتح التركي. لقد جُنِّد الأتراك منذ قرون كمرتزقة في جيوش الشرق ـ الأدنى. في نهاية القرن العاشر الميلادي تبنى أتراك آسيا الوسطى الإسلام السنّي. وقد تمرَّدت قبيلة تحمل اسم جدِّها ومؤسسها المفترض سلجوق، بعد أن كانت في خدمة أسرة إيرانية أفغانية هي أسرة الغزنويين، تحت إمرة زعيمها طُغُرل بِك، ونجحت في أن تحرَّر. وبعد أن نجح هذا الأخير في فتح قسم كبير من أراضي سيده السابق، دخل بغداد عام 1055م وتلقّى لقب سلطان من الخليفة العبّاسي الذي كان مسروراً أنه تخلَّص من وصاية الأمراء البويهيين الشيعة. وكان جيش السلطان يضم العديد من الجنود التركمان ومن الرُّحّال الذين يكونون السبب في المتاعب في زمن السِلم، وقد خوّلوا نهب المقاطعات البيزنطية. وفي عام 1054م قاد السلطان بنفسه جيشاً أمام القلعة الحصينة مانتزيكرت «Mantzikert»، إلاّ أنه فشل أمام حصن مستبسل.

لم يحاول السلاجقة أن يغزوا الإمبراطورية البيزنطية، حتى وإن كانوا على استعداد أن يسترجعوا المكتسبات الأخيرة التي حصل عليها البيزنطيون على حساب المسلمين في أرمينيا وسوريا. كان همّهم الأول إنهاء الخلافة الشيعية للفاطميين. كان البيزنطيون ضحايا الهَجَمات التركية التي كانت تتوغّل في عمق

Twitter: @alqareah

الأناضول خصوصاً إن المقاطعات الرومانية القديمة كانت قد تخلّت عن طابعها العسكري، وقد شاهد البيزنطيون أجمل مدنهم ميليتين «Mélitène» وثيودوسيوبوليس «Théodosioupolis» (آرتز «Arz» عند الرومان)، وقيصرية كبادوكيا، وخونس «Chônes» وهي تُنهب. غير أن العديد من العصابات التركية أُبيدت على يد الجنود البيزنطيين.

في عام 1071م قرّر القيصر رومان ديوجينيس (Romain Diogénès)، وهو قائد عسكري حمله جنوده إلى السلطة كي يدحر الأعداء على الحدود، أن يهاجم جيش السلطان ألب أرسلان (Alp Arslan) في طريقه إلى مصر، إلاّ أنه هزم في منتزيكرت «Mantzikert» قرب بحيرة فان «Van»، عام 1071م. وقد ازداد وقع هذه الهزيمة بسبب الحرب الأهلية التي انتشرت في الإمبراطورية نظراً لأن المتنافسين استدعوا الأتراك الذين كانوا يعتبرون مقاتلين أشدّاء، وقد أدخلوهم إلى أقاليم وإلى مدن محصنة لم يكن في استطاعة هؤلاء الأتراك أن يحتلّوها بقواهم وحدها. هكذا، فإن بعض السلاجقة وهم أبناء قطلمش (Qutlumush) وأبناء عم ألب أرسلان المخاصمين للسلطنة الإيرانية الكبرى استقروا في نيقيا قبل عام 1081م، وبلغوا شواطئ بحر مرمرة «Marmara» في مواجهة القسطنطينية. وبسرعة فإن سلاجقة الروم، وقد دُعوا كذلك نظراً لأنهم أقاموا بالأراضي الخاضعة لحكم الروم (البيزنطيين)، استطاعوا أن يسيطروا على قسم كبير من آسيا الصغرى، بل واحتلوا أنطاكية التي اضطُروا إلى أن يتقاسموها مع قبيلة تركية أخرى تقيم في وسط آسيا الصغرى وفي شمالها هي قبيلة الدنشمنديين Danishmendides. وفي بضعة عقود ضاعت هضبة الأناضول التي كانت مهد

Twitter: @alqareah

الجيوش التي قاومت بصلابة كل الهَجَمات العربية الكبرى عليها. إن هذا التقهقر الغريب يفسِّره عدم وعي القادة العسكريين إلى عدم قدرتهم على إدماج الأتراك القادمين الجدد في المجتمع البيزنطي، وكذلك التخلّي للتركمان عن مدن كانت تمسك بالبلد، وكذلك إلى عدم الاكتراث الذي أظهره الشعب في كبادوكيا وكان بطلهم رومان الرابع ديوجينيس (Romain IV Diogénès) الذي أعماه خصومه من آل دوكاي (Doukai) بطريقة مهينة، وفي نهاية الأمر إلى عدم قدرة ألكسي كومنينس على التدخّل منذ بداية حكمه ضد الأتراك الذين لم يكونوا قد استقرّوا نهائياً بعدُ، وذلك بسبب الهَجَمات النورماندية والبتشينيغية petchénègues. لنضف إلى ذلك أن الأحوال المُناخية والمراعي في الهضبة الوسطى تناسب تماماً طريقة عيش الأتراك الرُّحَّل.

أما في البلقان فإن البيزنطيين قد واجهوا قبائل رحَّالاً أخرى من الجنس التركي كانوا قد بقوا وثنيين وهم قبائل الأوز Ouzes والبتشينغ والكومان Coumans، وقد انتهوا إلى التغلّب عليهم وإلى دمجهم في مجتمعهم في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، ولكن بعد تحمّل خسائر فادحة.

3 ـ **الدينامية اللاتينية**: كان الإيطاليون أول من جاب طرق الشرق، إلاّ أن العديد من اللاتين لحقوا بهم في القرن الحادي عشر، وكانوا من التجّار والحجاج والجنود. كان أهالي أمالفيتي Amalfitains والبندقية يسيطرون على التجارة نحو الإمبراطورية، علماً أن التجار البيزنطيين ظلّوا حاضرين وفاعلين في مرافئ البحر المتوسط خصوصاً في الإسكندرية. وقد حصل البندقيون عام 1082م على تفوّق حاسم، على المدى البعيد من طريق منشور ذهبي (chrysobulle) حصلوا عليه من القيصر ألكسي كومنينس، الذي كان يحتاج إلى أُسطولهم ضدّ الغزاة النورمانديين. مقابل

Twitter: @alqareah

هذه الخدمة الثمينة فقد أعفوا من دفع الرسوم الجمركية، وهذا ما كان يعطيهم أفضليّة تنافسية، ليس فقط بالنسبة إلى بقية الغربيين ولكن كذلك بالنسبة إلى اليونانيين. وكانوا يستفيدون أيضاً من حي خاص بهم على طول القرن الذهبي الذي كان في طور أن يصبح المرفأ الأنشط في العاصمة. بعد أن اضطر ألكسي وخلفاؤه، من أجل الحدّ من تأثير البندقية، أن يمنحوا أفضليات لبيزا «Pize» وجنوى «Gênes»، حتى وإن كانتا على قدْرٍ أقل من الأهمية. غير أن القسطنطينية لم تفقد دورها كوسيط إجباري، نظراً لأن البحر الأسود ظلّ مغلقاً.

كثيراً ما قيل بأن هذه المعاهدة كانت ضدً المصالح البيزنطية غير أن تأثيراتها السيِّئة على الصعيد الاقتصادي ظلَّت معتدلة قبل عام 1204م، نظراً لأن حجم التجارة في شرق البحر المتوسط كان لا يزال متواضعاً جداً. أما الخسائر النفسية فكانت أشد تأثيراً، فالبيزنطيون سكان العاصمة كانوا يتحمّلون بتذمّر متزايد ما كانوا يعتبرونه امتيازاً ظالماً معطى للاتين يراهم الناس متكبِّرين. أما في الأقاليم فكان التجار اللاتين يأتون ليحملوا القمح الذي يستوردونه من أجل إطعام المدن الإيطالية التي يتزايد سكانها، وفي الوقت عينه كانوا يساهمون في إغناء كبار ملّاك الأراضي ومنهم أعضاء أسرة القيصر الواسعة الذين كانوا يبيعونهم الفائض من أراضيهم الشاسعة.

لقد ضمّ القياصرةُ اللاتينَ أكثر فأكثر إلى جيوشهم خصوصاً النورماند وذلك بسبب قيمتهم العسكرية. فلقد كانوا من خيرة الفرسان، وكان ينقص الجيش البيزنطي رجال قادرون على الكر جماعات والحراب في أيديهم، لأنه لم يكن قد عرف بعد كيف يتبنّى هذا التكتيك الجديد الذي حقّقه الغرب. لقد استعمل هؤلاء المرتزقة باستمرار في عهد حكم أسرة كومنينس وأسرة

Twitter: @alqareah

باليولوغوس، على الرغم من بعض عدم الانضباط حين كانت الرواتب تتأخر عن موعدها. قسم من الرجال كان يجنّد حين كانوا يمرّون بالقسطنطينية في طريقهم للحج إلى القدس. بالفعل، فمنذ أن استقرّ الهنغاريون بمملكة مسيحية جديدة، فإن نبلاء الغرب والمؤمنين من رعاياهم أخذوا يسلكون أكثر فأكثر الطريق البرية نحو الأراضي المقدّسة. لقد تعلّم البيزنطيون كيف يقدِّرون مزايا المحاربين النورمانديين، حين كافحوا عصابات المرتزقة الذين وظّفهم الأمراء اللومبارديون في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي. كان النورمانديون قليلي العدد إلاّ أنهم استطاعوا في النهاية الاستيلاء على مدينة باري عام 1071م، الذي كان فعلاً عاماً سيِّئاً للإمبراطورية، وكانوا تحت قيادة روبرت غيسكار (Robert Guiscard). خطّطت حكومة الإمبراطورية في عهد ميخائيل السابع لمشروع تتَّخذ بموجبه غيسكار ورجاله في خدمتها من أجل محاربة الأتراك، مع التلميح إلى إمكانية قيام مصاهرة بين ابنة غيسكار ووريث العرش. غير أن غيسكار الذي كان يرغب في احتلال القسطنطينية لحسابه الخاص اجتاز عام 1081م مضيق أترنت «Otrante» واحتل ديراخيون «Dyrrachion» التي كانت تتحكّم في طريق أغناتيا، وهدد مع ابنه بوهيموند (Bohémond) البلقان إلى حين وفاته عام 1085م.

لم تكن الاختلافات الدينية تشكِّل عائقاً بعدُ، نظراً لأن الشعور بالوحدة المسيحية كان لا يزال الغالب، على الرغم من حدث مُثقل بالتداعيات: انفصال عام 1054م. كانت البابوية في الغرب تحاول أن تتخلّص من سيطرة العلمانيين فدخلت في ما سمي صراع التنصيبات الملكية. مثل هذا التطوّر لم يكن من الممكن تصوّره في الإمبراطورية البيزنطية حيث كان البطريرك والكنيسة تحت السيطرة الكاملة للقياصرة. كان البابا ليون التاسع (Léon IX) من أوائل البابوات المصلحين، وكان همّه الأساسي أوّلية كرسي روما

Twitter: @alqareah

وأفضليته على سائر الكنائس فاصطدم بمطالب البطريرك ميخائيل كيرولاريوس (Michel Cérulaire). توجّهت البعثة البابوية، وعلى رأسها الكاردينال المتشدِّد همبرت (Humbert) إلى القسطنطينية لتمتين الصلة بين البابا والقيصر قسطنطين التاسع مونوماك (Constantin IX Monomaque) ، في وجه العدو المشترك النورمانديين في جنوب إيطاليا. اعتقد همبرت أنه يستطيع أن يعتمد على تأييد القيصر من أجل فرض الحرم على البطريرك. كان هذا يحظى بتأييد الكنيسة البيزنطية وسكان العاصمة فردّ بشدّة وألقى الحرم على البعثة البابوية في شهر تموز/يوليو من عام 1054م، وأحدث الانفصال بين الكنيستين.

لم تكن هذه هي القطيعة الأولى بين الكنيستين، واستمرت المحادثات بين البابوية وبين الإمبراطورية من أجل تحالفٍ معادٍ للنورمانديين لفترة معيَّنة. ولم تمنع هذه القطيعة البابوات من أن يحثّوا المؤمنين في الغرب على مساعدة الشرق. أما كيرولاريوس (Cérulaire) من جهته فقد احتفظ بواقع سلطته على بقية البطريركيات الشرقية. والحال فإن الانفصال كان يشكِّل الإشارة بوجود اختلافات تباعد ببطء بين جُزءَي المسيحية. وبعد ذلك بعقود بدا واضحاً أن وحدة الكنائس إن كانت قد ظلّت أمراً مرغوباً فيه، إلاّ أن تحقيقه لن يكون سهلاً. ثم جاء احتلال اللاتين للقسطنطينية عام 1204م وإقامة كنيسة لاتينية على أنقاض الإمبراطورية، ليزيد كل هذا في تأجيج الأحقاد.

4 ـ **بيزنطية والحرب الصليبية**: لقد دعا البابا غريغوريوس السابع (Grégoire VII) ثم البابا أربانوس الثاني (Urbain II) في مجمعَي بليزنس «Plaisance» وكليرمان «Clermont» (1095) جميع اللاتين إلى مساعدة إخوتهم في الشرق الذين يسحقهم الأتراك. كذلك فإن القيصر ألكسي كومنينس كان قد بعث بالعديد من الرسل

Twitter: @alqareah

إلى الغرب كي يطلب النجدة العسكرية على الأخص. نتج عن ذلك حج ضخم مسلّح ندعوه حرباً صليبية، كان هدفها بالإضافة إلى مساعدة اليونان، أن تجعل الطرق المؤدِّية إلى الأماكن المقدَّسة آمنة من طريق السيطرة على القدس. قادة الصليبيين كانوا غودفروا دي بويون (Godefroy de Bouillon)، وريمون دي سان جيل (Raymond de Saint-Gilles) وهو كونت مدينة تولوز «Toulouse»، وإتيان (Étienne) وهو كونت مدينة بلوا «Blois»، وبوهيمند من مدينة تارنتي «Tarente» [في جنوب إيطاليا]؛ بما أنه لم يكن عندهم أسطول كافٍ فقد قرّروا أن يتبعوا طرقاً برية تلتقي كلها في القسطنطينية. استقبلهم الإمبراطور [القيصر] ألكسي كومنينس وهو يعلم أنهم لم يكونوا مجرد مرتزقة. وكان يهدف إلى أمرين: إبعاد الجيوش اللاتينية بأسرع ما يمكنه عن القسطنطينية، ثم الاستفادة من وجودهم ليستعيد مركزه في آسيا الصغرى. وقد عجل بتمرير عصابات بطرس الناسك (Pierre l'Ermite) غير المنظّمة عبر المضيق، وقد سحقهم الأتراك في نيقيا. وفاوض الرؤساء الأسياد على اتفاق يقضي بأن يعيد «الصليبيون» كل المدن التي فقدها البيزنطيون حديثاً مقابل دعم لوجستي وإرسال جيش مساعد يقوده الإمبراطور [القيصر] شخصياً. كان بوهيمند النورماندي يعرف التقاليد البيزنطية فاتفق بسهولة مع ألكسي، على عكس تأكيدات آن كومنينس أنه كان يأمل بأن يصبح قائد الجيوش البيزنطية في الشرق.

فُتحت نيقيا في شهر أيار/مايو 1097م وأُعيدت إلى ألكسي. ولكن حين استولى بوهيمند على أنطاكية لم يشأ أن يعيدها إلى الإمبراطور [القيصر] بحجّة أن هذا الأخير لم يفِ بالتزامه. بالفعل، فإن ألكسي كانت قد وصلته تقارير خطيرة عن القادة الصليبيين الذين هربوا من حصار أنطاكية فخدعته وجعلته يتخلّى عن نجدة

Twitter: @alqareah

اللاتين حين كانوا في موقع الخطر. إن ألكسي وكذلك ابنه يوحنا الثاني لم يتخلّيا إطلاقاً عن محاولة السيطرة على شمال سوريا، وهذا تسبَّب بإثارة العديد من المواجهات مع الأمراء اللاتين في أَنطاكية. أخيراً وصل الصليبيون إلى القدس، واستولوا عليها في الخامس عشر من شهر تموز/يوليو عام 1099م. وأُرسلت الفرق من الغرب في السنوات التالية من أجل تعزيز دولة الفِرِنْجة في الشرق، غير أنهم جاؤوا من دون أي تنظيم بينهم، لذا فقد هزمهم الأتراك. ولقد أشاع بعض اللاتين ومنهم بوهمند بأن القيصر سلّم بملء إرادته كل هذه التعزيزات للأتراك. لم يردد الجميع مثل هذا الاتهام، إلاّ أن الأكيد هو أن العديد من أحداث الحملة الصليبية الأولى قد تمخّضت عن حذر متبادل عند اللاتين واليونان.

غير أن ألكسي كومنينس استفاد من الحرب الصليبية، نظراً لأن الأتراك السلجوقيين الذين هُزموا هزيمة نكراء على يد اللاتين، فقدوا عاصمتهم نيقيا. تراجع الأتراك إلى الهضبة حيث أنشأوا عاصمةً جديدةً هي قونيا «Konya» التي كانت تسمى سابقاً أيقونيون «Ikpnion». لقد استعاد البيزنطيون منهم القسم الغربي من آسيا الصغرى الذي كان يحوي أفضل أراضٍ زراعية ومدن مزدهرة مثل نيقيا أو إِزمير، وكذلك استطاعوا أن ينقذوا مرفأ إيطاليا المحاصر.

5 ـ **مانويل كومنينس: البريق الأخير**: تمتع الإمبراطور [القيصر] الثالث لآل كومنينس (Jean Kinnamos) بسمعة متضاربة. فالمؤرخون الغربيون المعاصرون له يكيلون له المديح بالأحرى، بينما اليونان منقسمون فيوحنا كناموس يتحمس له في حين أن نيكيتاس خونياتس (Nicétas Chôniatés) يحكم على عهده بأنه كان سلبياً جداً نظراً لأنه استنفد قوى الإمبراطورية. صحيح أن مانويل قضى قسماً كبيراً من عهده في الحروب. وقد حاول

Twitter: @alqareah

أن يدخل إلى جنوب إيطاليا ولكن ليس من أجل اتباع سياسة إمبريالية على طريقة يوستنيانوس بل من أجل منع الهَجَمات النورماندية مثل هجمات روجر الثاني (Roger II). بالفعل، فهذا الأخير استفاد من مرور الحرب الصليبية الثانية التي كان يقودها لويس الثامن (Louis VIII) ملك فرنسا وكونراد الثالث (Conrad III) ملك ألمانيا، والتي عبّأت الجيوش البيزنطية حول القسطنطينية، وهاجم كورنثس «Corinthe» وطيبة «Thèbes» المدينتين الغنيّتين، ونقل إلى صقلية قسماً من صنّاعهم للحرير، وكذلك فقد أشاد قلعة في كورفو «Corfou» اضطُر الإمبراطور [القيصر] إلى أن يحارب عدة سنوات كي يستعيدها بمعاونة البندقية.

قام منويل كذلك بشن حملات عديدة ضد الصرب والهنغاريين، وهذا ما أتاح له السيطرة الكاملة على شبه جزيرة البلقان. ولقد قطع مع سياسة سابقيه الذين حاولوا إخضاع إمارة أَنطاكية بالقوة، فبذل كل جهده من أجل أن يكون شريكاً لا غنى عنه لدول الفرنجة في الشرق. تقرّب من ملوك القدس الذين كانوا قلقين من ازدياد قوات نور الدين ومساعده وخليفته صلاح الدين، غير أن العمليات العسكرية من أجل الحصول على موارد مصر الضخمة فشلت تماماً. إلاّ أن منويل أنفق ثروات طائلة من أجل مساندة اللاتين في الشرق، وقد ترك وراءه ذكرى ملك كريم همّه خلاص المسيحيين.

لم ينسَ منويل آسيا الصغرى وقد حاول الحد من حماس الأرمن للاستقلال، وكانوا قد استقروا بكيليكيا منذ غزو السلاجقة أَرمينيا، في نهاية القرن الحادي عشر الذي تسبب بهجرة قوية نحو الجنوب الذي اعتُبر أكثر أمناً. بعد موته، كان الروبينيون (Roupénides) يمسكون بزمام البلد وانتهوا إلى أن حصلوا على استقلالهم، وفي عام 1198م نال ليون (Léon) سيد كيليكيا تاجاً

Twitter: @alqareah

ملكياً. ولقد نجح منويل كذلك بانتزاع اعتراف بسيادته، وبالقوة في قسم منه، من قِبل الدنشمنديين والسلاجقة. في عام 1162م استقبل القيصر بحفاوة في القسطنطينية قلب إرسلان الثاني (Arslan II). كان منويل واثقاً جداً من نفسه فترك السلطان السلجوقي يبتلع دولة الدنشمند، وقد اضطر إلى أن يقوم بحملة ضد أقونيون «Ikonion». وجمع عام 1176م جيشاً قوياً كي يحاصر عاصمة السلاجقة، إلاّ أنه بوغت أثناء استعراض ميريوكيفالون Myrioképhalon. لم يحطم الجيش البيزنطي وظلّ قادراً على حماية الأراضي البيزنطية، غير أن كل أمل للبيزنطيين باستعادة هضبة الأناضول ضاع تماماً.

اكتسبت حكومة الإمبراطورية، في عهد منويل، سمات ميَّزت المرحلة الأخيرة من التاريخ البيزنطي. لقد سيطرت الأرستقراطية دوماً على مصير الإمبراطورية، لكن مع مجيء أسرة كومنينس ازداد دور القرابة مع القيصر حتى أن التراتبية الاجتماعية تأسّست على القرب من القيصر. منح أخوة القيصر لقب سيبستكراتور (sébastokratôr)، في حين منح بقية الأقارب لقب سيباست (sébaste)، وهذا ما ميّزهم عن بقية السكان حتى عن كبار الموظفين، إذ كانت هذه الرتب ممنوعة عنهم أثناء حكم أسرة كومنينس وغالباً ما كان خيرة ضبّاط الجيش يحظون بيد صبية من ذرية القيصر العديدة، وهذا ما سمح بتوسيع حلقة هذه الأرستقراطية العليا وفتحها أمام أفراد جدد مما يمنعها من التحجّر.

لقد اهتم القياصرة من أسرة كومنينس بسكان عاصمتهم. إن تدشين عهد ألكسي (Alexis) عام 1081م صاحبته أعمال عنف ونهب، إلاّ أن يوحنا الثاني على الأخصّ منويل أشركا في نجاحاتهما سكان القسطنطينية، وبذلك تمّ إعادة التقليد القديم في

Twitter: @alqareah

الاحتفال بالانتصار في أرجاء المدينة. ولقد صالحوا كذلك نخبة المثقفين الذين كانوا يملأون المكاتب، وكانوا يدعونهم إلى البلاط من أجل إلقاء كلمات المديح للقيصر، ويوزعون عليهم أفضل مناصب الكنيسة.

6 ـ **الازدهار**: لقد ظهرت آثار النمو السكّاني البطيء بشكلٍ أوضح، اعتباراً من القرن الحادي عشر. فامتلأت المدن البيزنطية بالسكان إبتداءً من القسطنطينية، ولم تعد مجرد مراكز إدارية أو عسكرية حصرياً تقريباً. في عهد حكم آل كومنينس بلغت العاصمة أَوْجها الديمغرافي في العصر الوسيط، إذ ربما يبلغ عدد سكانها ما بين 300000 و 400000 نسمة. وكان تموينها متوافراً، فإلى جانب القمح الآتي من المقاطعات القريبة مثل تراس وبيتينيا كان هناك السمك الكثير الزهيد الثمن الذي يوفِّره صيّادو البوسفور. أما مدن الأقاليم فقد خرجت من سياقها، مع أنها لم تتجاوز كقاعدة عامة 10000 نسمة سوى تسالونيكي التي أخذت مكان أفسس، وكذلك طبعاً مدن الشرق إنطاكيا أو أوديسا أو آني.

أما في الأرياف فإن القرى تكاثرت حتى وإن كان من الصعب الإحاطة بمدى هذا التمدّد ووتيرته. إن الوثائق لا تزوّدنا بمعطيات دقيقة إلاّ لإقليم مقدونيا وذلك بفضل محفوظات أديرة جبل أثوس. وتدلّنا هذه على أن العديد من المنشآت الريفية قد اندمجت في الشبكة الأولى للقرى، وأن هذا التطوّر الجيد قد أكمل طريقه على الرغم من التقلّبات السياسية في القرن الثالث عشر الميلادي حتى بداية القرن الرابع عشر، حين لم يعد الفلاحون يملكون سوى مزارع ذات مساحات صغيرة فاضطروا إلى استصلاح الأراضي ذات القيمة الزهيدة. كل هذا التقدّم حصل من دون وقوع أي ثورة زراعية.

Twitter: @alqareah

لم تتميز الإمبراطورية البيزنطية عن أوروبا المعاصرة لها، وقد حملتها حركة التوسع التي بدأت تتوقّف بضعة عقود قبل عودة الطاعون الذي أحدث نزيفاً مخيفاً في منتصف القرن الرابع عشر. إننا نجد صعوبة كبيرة في تمييزات الفروق الإقليمية. يبدو أن بلاد البلقان عرفت، كما مقدونيا، توسعاً لم ينقطع؛ في حين أن الغزو التركي كان له وقعٌ سلبي على آسيا الصغرى في جزئها الغربي. أما في بيتينيا القريبة من العاصمة فإن التراجع لم يدم طويلاً، في حين أن أدراميتيون «Adramyttion» ظلّت مهجورة مع بداية حكم منويل. بعد ذلك بدورها آسيا الصغرى البيزنطية والسلجوقية استفادت من الظروف المؤاتية. هذا الازدهار المستعاد هو الذي يفسِّر الأسس الصلبة للدولة النيقية التي قامت في المنطقة بعد عام 1204م. بعد ذلك، فإن الاضطرابات التي رافقت الفتح العثماني أُضيفت إلى الصعوبات الظرفية وأدّت إلى تقهقر جديد للسكان لم يعوّضه مجيء قبائل تركية جديدة.

لقد تطوّرت كذلك الأنشطة الحرفية والتجارية مستفيدة من نمو أسواق المدن وعلى رأسها سوق القسطنطينية الضخم، وكذلك من انتعاش التبادلات التجارية في البحر المتوسط. أما صناعة الأصناف الكمالية فقد تركّزت بشكل واسع في العاصمة، وبدأت منذ ذلك الوقت بعض مدن الأقاليم مثل طيبة أو كورنثوس تقيم مشاغل مزدهرة جداً تنتج المنسوجات الحريرية الشهيرة التي يأتي التجار الإيطاليون لشرائها من مكان صنعها. وضمَّت تسالونيكي في القدِّيس ديمتريوس (Saint-Dèmètrios) معرضاً كان يشارك فيه تجّار قادمون من كل أرجاء البحر المتوسط.

إن ازدهار الإنتاج وفّر للقياصرة مداخيل ضريبية هامة. ومما لا شك فيه أن الحروب الأهلية والغزوات الداخلية جرَّت معها صعوبات

Twitter: @alqareah

خطيرة، نظراً لأن ضرائب المقاطعات المحتلّة لم تعد تصل في الوقت الذي كانت تزداد فيه النفقات العسكرية الضرورية. بالتالي فإن النوميزما nomisma [العملة البيزنطية] عرفت خلال القرن الحادي عشر إنقاصاً ضعيفاً من قيمتها الذي يمكننا أن نفسِّره كذلك بأنه جاء نتيجة شحّ في الاحتياطي المعدني بالنسبة إلى النمو الاقتصادي الحاصل، ثم كان هناك تخفيضٌ ثانٍ في سعر صرف العملة وكان كارثة بالفعل إلى أن سكّ ألكسي كومنينس عملة ذهبية هي الهيبربير hyperpère [الدينار]، الذي اعتُمد غالباً في التجارة الدولية بسبب استقراره خلال قرن كامل.

7 ـ **عاصمة كونية**: إن الثروة المتزايدة للنخبة تُرجمت بأبنية جديدة شيِّدت في القسطنطينية بشكل أساسي. كل واحد من قياصرة (أباطرة) القرن الحادي عشر ترك ديراً ضخماً تحيط به الأراضي الشاسعة مما جعل منه مركزاً للاستثمار الاقتصادي (أويكوس oikos). وأشهرها كان دير المانغان «Manganes» الذي شيّده قسطنطين التاسع مونوماخوس (Constantin IX Monomaque) والذي كان يضم مدرسة للحقوق مهمتها إعداد كبار الموظفين. وقد تابعت أسرة كومنينس هذا التقليد فجدّد ألكسي الميتم الكبير؛ أما ابنه يوحنا الثاني فأسّس دير البانتوكراتر «Pantocrator» [الضابط الكل]، ويمكننا حتى اليوم مشاهدة كنائسه الرائعة. وأثناء حكم آل كومنينس توقف القصر الكبير عن أن يكون مكان إقامة الأباطرة (القياصرة)، نظراً لأنهم بنوا قصراً جديداً بالقرب من كنيسة القدِّيسة مريم في بلاشيرن «Blachernes»، الواقعة في عمق القرن الذهبي. إن المؤسسات السكنية والأديرة كانت تمتلك قسماً كبيراً من أبنية العاصمة.

Twitter: @alqareah

II ـ الانكماش إلى أوروبا (1180-1341)

1 ـ **الحرب الصليبية الرابعة وتداعياتها:** في نظر المعاصرين شكّلت سنة 1180م، وهي سنة وفاة مانويل كومنينس، بداية الانحطاط البيزنطي، وهذه ملاحظة في غاية الدقّة. لقد ترك الإمبراطور [القيصر] السلطة إلى ولد قاصر، وكما يحصل دوماً، فإن الوصاية التي مارستها أم ألكسي الثاني (Alexis II)، ماريا الأنطاكية (Marie d'Antioche) وهي من أصلٍ لاتيني، كشفت سريعاً عن قيام حركات العصيان؛ إلاّ أن اغتصاب السلطة الدموي الذي قام به أندرونيك الأول كومنينس (Andronic Ier Comnène) انتهى إلى اغتياله من قبل جماهير القسطنطينية. ولم يستطع إسحق انجيلوس (Isaac Ange) الذي وصل بالصدفة إلى العرش أن يسحق التمرّد الجديد الذي قام به البلغار يؤيدهم الفالاك (Valaques) والكومان (Coumans). وقد قام أخوه بانقلاب ضدّه عام 1195م. إن عدم الاستقرار هذا الذي أصاب السلطة عزّز المشاعر الاستقلالية في بعض المقاطعات، كما حصل في ليديا «Lydie» حول فيلادلفيا أو في قبرص أو في البيلوبونيز. بان الضعف المتسارع للإمبراطورية جلياً من خلال مرور الحرب الصليبية الثالثة المُعدّة لاسترجاع القدس من صلاح الدين. ففي عام 1191م احتل الإنكليز بقيادة ريكاردوس قلب الأسد (Richard Cœur de Lion) قبرص التي أصبحت دولة إفرنجية في الشرق أُعطيت للسلالة التي خسرت مملكة القدس وهي أسرة لوسينيان (Lusignan). لقد فرض فردريك باربروس (Frédéric Barberousse) وهو على رأس جيش قوي اتفاقاً على إسحق الثاني، وذلك بعد أن كان قد تساءل لفترة قصيرة عن جدوى فتح الإمبراطورية البيزنطية التي كان يجتازها، خصوصاً

Twitter: @alqareah

أن القيصر كان قد وقّع تحالفاً مع صلاح الدين. كل عمل منويل كومنينس تلاشى هباء.

كان على حرب صليبية جديدة أن تهاجم مصر من طريق البحر على أمل استعادة القدس. أما الصليبيّون الذين يقودهم أمراء كبار مثل بودوان (Baudouin) من الفلندر Flandre أو بونيفاس (Boniface) من آل مونفيرات Monferrat [من لومبارديا] فتجمّعوا في البندقية حيث كانت تنتظرهم السفن التي استأجرها رؤساؤهم. وقد جاء المشاركون ولم يكونوا في العدد المتوقّع في الخطة الأصلية، وذلك لعدم تلقّي ما وُعدوا به من نقود، وقد اقترح أهل البندقية على الصليبيّين كتعويض عن ذلك أن يقدّموا لهم خدمة بإخضاع مدينة زارا الدلماتية «dalmatte de Zara» التي كانت معادية لهم. وعلى الرغم من إدانة البابا القاطعة لهذا الانحراف عن المسار، وعلى الرغم من رفض قسم هام من الجنود للعملية، فقد احتل الصليبيون هذه المدينة المسيحية. هرب ألكسي ابن الإمبراطور [القيصر] المعزول إسحق الثاني (Isaac II) من سجنه في القسطنطينية، واقترح على الصليبيين أن يعيدوا له الحكم مقابل دعم هام لهم في حملتهم في ما وراء البحار. قبِل هؤلاء اقتراحه بعد مناقشات حامية.

وفي تموز/يوليو من عام 1203م وصل الأسطول اللاتيني أمام أسوار القسطنطينية. نزل الجيش إلى الشاطئ، إلاّ أن أبواب المدينة لم تُفتح أمام المُطالب بالعرش. غير أن ألكسي الثالث أنجيلوس (Alexis III Ange) لم يعرف كيف يردّ المهاجمين فهرب ليلاً من عاصمته. قرر السكان استدعاء إسحق الثاني الذي استقبل ابنه والرؤساء اللاتين من دون أن يجعلوا جنودهم تدخل المدينة. إلاّ أن الأقاليم لم تعترف بالإمبراطور [القيصر] الجديد حتى أن هذا لم يستطع أن يفي بوعوده. وقد كرهه الناس نظراً لأنه فرض ضرائب باهظة لصالح حلفائه، وهذا ما أدّى إلى عزله ووصول

Twitter: @alqareah

إمبراطور [القيصر] جديد إلى العرش هو ألكسي الخامس مورتزوفلوس (Alexis V Mourtzouphlos) المصمّم على رمي اللاتين في البحر. شنّ الصليبيون الهجوم ونجحوا في اختراق الأسوار المنيعة التي لم يستطع أحد تخطيّها حتى ذلك اليوم الثاني عشر من شهر نيسان/أَبْريل عام 1204م. لقد تأسّست الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، والبابا أنسنت الثالث (Innocent III) الذي كان قد أدان بشدّة انحراف الحرب الصليبية، سرّ كثيراً في النهاية بنجاحها الذي سمح للكنيسة بتنصيب بطريرك لاتيني في روما الجديدة، ويضع حداً بهذه الطريقة للانفصال.

2 ـ **إمبراطورية نيقيا**: جرٍّ سقوط القسطنطينية الفوضى، وبان العديد من الرؤساء المحلّيين الذين حاولوا انتزاع إمارات مستقلّةً لهم، وفي مرحلة أولى استفاد أعداء اليونان من مثل هذا الوضع. فقد وصل السلاجقة إلى البحار واحتلّوا سينوبي «Sinope» على البحر الأسود وأطاليا «Attaleia» على البحر المتوسط، موسِّعين أعمالهم التجارية التي كانت في أَوْج نهوضها، وأنشأ أحد رؤساء الحرب الصليبية وهو بونيفاس مونتميرات (Boniface de Montferrat) مملكة تسالونيكي. واستقرّ بعض معاونيه بالبيلوبونيز ليقيموا إمارة أخايي «Achaïe». أخيراً، فإن البندقيين احتلّوا كريت وجزيرة إيبي «Eubée» [في بحر إيجه]، وكورفو «Corfou». إلاّ أن اليونان لم يستسلموا. واستفاد العديد من القادة أصحاب الدم القيصري من الضعف المباشر للاتين الذين غلبهم البلغار في مدينة أندرنوبلي «Andrinople» [أدرنة اليوم في تركيا]، وأنشأوا ثلاث دول: الدولة الأولى، أسّسها أحفاد أندرونيك كومنينس كانت تمتد من طرابزون إلى بافلاغونيا [المنطقة الساحلية في شمال آسيا الصغرى]؛ أما الدولة الثانية،

Twitter: @alqareah

فكان وراءها أسرة دوكاس (Doucas) وأسرة أنجيلوس (Anges) وقد أقيمت في جبال الأبير «Épire» [بين اليونان وألبانيا]؛ وأما الثالثة، فقد أسّسها صهر لألكسي الثالث (Alexis III) ثيودور لاسكاريس (Théodore Lascaris). وهذا الأخير كان قد اجتاز البوسفور قبل سقوط القسطنطينية عام 1204م وثبَّت تفوّقه في آسيا الغربية حين احتفظ بسيطرته على أزمير ونيقيا. ومن أجل إعادة الإمبراطورية لا بد من استعادة عاصمتها السابقة، لذا حاول كل من هؤلاء القادة اليونان الثلاثة الجدد أن يزحف نحو المدينة مصارعاً في آنٍ واحد منافسيه إلى جانب اللاتين. إن أسرة كومنينس في طرابزون «Trébizonde» ادّعت لنفسها لقب الإمبراطور، إلاّ أنها كانت أول الساقطين. فدولتها بقيت على شواطئ جسر أوكسين «Pont-Euxin» الذي تقلّص تدريجياً بسبب الهجمات التركية، لكنها احتفظت بجوار عاصمتها بنواة من السكان اليونان المتجانسين. أما ثيودور أنجيليوس من أبير فبدا لفترة أنه في الموقع الأفضل، نظراً لأنه استطاع أن يحطِّم الجيش اللاتيني الآتي للنجدة عام 1217م كما أنه استعاد تسالونيكي. لقد تسلّح بهذا النجاح وأعلن نفسه إمبراطوراً، غير أن هزيمة رهيبة لحقت به عام 1230م في وجه البلغار في كلوكونيتسا «Klokonitsa» فحطّمت كل آماله. أما ثيودور لاسكاريس فعرف كيف يجلب إليه القسم الأكبر من النخبة التي هربت من القسطنطينية. تغلب على كل منافسيه من كبار الأعيان في آسيا الصغرى، واستطاع أن يفرض أن تستقر البطريركية اليونانية بنيقيا، وما أن عيّن البطريرك أوتوريانوس (Autoreianos) حتى توّجَهُ (باسيليوس basileus) أي ملكاً.

انتصر الإمبراطور [القيصر] اليوناني الجديد عام 1211م على السلطان السلجوقي، واستطاع أن يصمد بعد ذلك بثلاث

Twitter: @alqareah

سنوات أمام هجوم هنري دي هينو (Henri de Hainaut) الإمبراطور [القيصر] اللاتيني الذي نجح في أن يتوغّل حتى منطقة أزمير. وفي عام 1221م ترك ثيودور دولة متواضعة ولكن مستقرّة لصهره وخليفته يوحنا الثالث فاتتزس (Jean III Vatatzès) وقد استفاد هذا الأخير من انتصار المغول على السلاجقة عام 1243م إذ خلّصه من أي انهمام بحدوده الشرقية. وقد عرفت الأقاليم الشرقية سلاماً عميقاً خلال عدّة عقود. إن قرب الإمبراطور [القيصر] من رعاياه، واهتمامه بحسن إدارة ممتلكات الإمبراطورية، والمراقبة اللصيقة لموظّفي الدولة كانت وراء الازدهار الذي عرفه الفلاحون. ولقد استطاع البيزنطيون أن يبيعوا منتوجاتهم الزراعية للسلاجقة الجائعين بسبب الفوضى التي نتجت عن احتلال المغول الأناضول. وسمحت الضرائب المفروضة، من دون إثقال كاهل الشعب، بإعادة بناء جيش قوي استطاع فاتتزس أن يطرد به اللاتين من آسيا، واستعاد جزءاً من الأقاليم الأوروبية بالإضافة إلى أندرنوبلي «Andrinople» [أدرنة]، ثم احتل تسالونيكي عام 1246م بمساعدة سكانها. أما القسطنطينية فقد أُفلتت منه. لم يكن الإمبراطور [القيصر] اللاتيني يجرؤ على الخروج من مدينته إلاّ أن أسوارها ظلّت عقبة ضخمة في وجه مهاجمها، ولم يكن البندقيون يرغبون في فقدان وضعهم التجاري المتفوق منذ أن أطلّوا على البحر الأسود فمنعوا كل هجوم من جهة البحر وكل حصار. أضف إلى ذلك أن النخب في نيقيا كانت منقسمة، والبعض منها لم يعد يعتبر استعادة القسطنطينية كهدف له الأولوية. لقد ترك عهد يوحنا فاتتزس لسكان الأقاليم الآسيوية ذكرى عهد ذهبي، وقد أحيا الناس ذكراه، حتى أن بعضهم، وبعد مضيّ عقود عديدة، وفي زمن الأزمات، اعتبروه كقدّيس يستنجدون به ضد الغزاة الأتراك.

Twitter: @alqareah

3 ـ **إستعادة القسطنطينية والخطر اللاتيني**: في عام 1259 كان هناك قائد عسكري في عروقه دم إمبراطوري هو ميخائيل باليولوغوس (Michel Paléologue) الذي أُعلن وصياً ثم إمبراطوراً مشاركاً للشاب يوحنا الرابع لسكاريس (Jean IV Lascaris)، حفيد يوحنا الثالث. كان الوضع يتطلب بالفعل رجل عمل، ففي تلك السنة أقام اللاتين تحالفاً يضم كل خصوم النيقيين ومنهم أمير أخايي غليوم دي فيلهاردوين (Guillaume de Villehardouin)، وملك صقلية منفرد (Manfred) والأبيريون (Épirotes). نجح يوحنا باليولوغوس الذي أرسله أخوه في سحق التحالف في بيلاغونيا «Pélagonia» في مقدونيا، وفي أسر غليوم الذي لم يفك أسره إلاّ بعد أن تخلّى عن جنوب شرق منطقة البيلوبونيز ومرفأ مونمفازيا «Monemvasie»، أساس الإقليم البيزنطي في موري (Morée) [الاسم الذي أطلقه اللاتين على البيلوبونيز].

فكّر ميخائيل الثامن (Michel VIII) في أن يسترجع القسطنطينية، إلاّ أن محاولته الأولى عام 1260 باءت سريعاً بالفشل. قرّر أن يفاوض أهالي جنوى وهم المنافسون أهالي البندقية، وقد وقّع معهم اتفاقاً في ربيع عام 1261م في نيمفيا «Nymphée» مقرّ الأباطرة بالقرب من أزمير. وُعِد الجنويون بالحلول محل البندقيين إن أُعيد فتح القسطنطينية بفضل مساعدة أسطولهم. في الواقع، فإن المدينة سقطت دونما قتال تقريباً، حين اكتشف بالصدفة ألكسي ستريتيغوبولس (Alexis Stratègopoulos) الذي كان يقود فرقة متواضعة، أن الأسوار كانت شبه خالية من المدافعين، فأدخل جنوده إلى المدينة في تموز/يوليو من عام 1261م. هذا الانتصار المفاجئ عزّز سلطة ميخائيل الثامن الذي أعاد عملية تتويجه في الخامس عشر من شهر آب/أغسطس في كنيسة آيا صوفيا [الحكمة المقدّسة] وفي الميلاد التالي أمر بفقء عينَي يوحنا الرابع.

Twitter: @alqareah

لم يكن الوضع في عام 1261م جيداً كما كان يبدو. بالفعل، فإن إعادة إعمار القسطنطينية، التي نُهبت ثلاث مرات، وحُرقت خلال أحداث 1203 ـ 1204، والتي أهملها اللاتين لأنهم كانوا في شدّة من الفقر فلم يهتموا إلاّ بالحي البندقي، ابتلع قسماً مهماً من الموارد التي تجمّعت في نيقيا. أيضاً فإن إصلاح الأسوار وتشييدها زاد التكلفة كثيراً. كما كان على الدولة أن تدفع لموظفين إضافيين ولعدد أكبر من الجنود مما جعل التوازن المالي يصبح هشاً. كان الهيبربير Hyperpère [الدينار الذهبي] قد فقد بعضاً من قيمته منذ عهد أسرة أنجيلوس وقد ضعف الآن أكثر فأكثر، ولم تعد العملة الذهبية تُضرب في عهد يوحنا الخامس باليولوغوس، واستعيض عنها بعملات ضعيفة من الفضة.

على الصعيد السياسي، خاصم سكان آسيا الصغرى ميخائيل الثامن نظراً لأنهم كانوا متعلّقين جداً بأسرة لاسكاريدس التي عرفوا أثناء حكمها السلام والثروة. أما الأمر الأخطر فهو أن عودة الإمبراطور [القيصر] إلى القسطنطينية لم تُؤدِ إلى تأييد اليونان له في طرابزون أو أبير Épire أو تيساليا، وقد دخل معهم في نزاع لا طائل تحته. منذ ذلك اليوم لم يعد اليونانيون يعتقدون أن ملك القسطنطينية هو بالضرورة شرعي، وهذا الموقف هيّأ لتفتت الإمبراطورية التي بدت أعراضه الأولى منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي.

أخيراً فقد واجه ميخائيل الثامن الرد العنيف للاتين الذين أُخرجوا من البوسفور. إن أمير أخايي أو دوق أثينا ما كانا ليصبحا خصمين رهيبين لو لم يحظَ الفرنك (الفرنجة) بتأييد الحاكم الجديد لجنوب إيطاليا وصقلية شارل دانجو (Charles d'Anjou) وهو الأخ الطموح لملك فرنسا القدّيس لويس [لويس التاسع]. كان اللاتين يستطيعون كذلك أن يعتمدوا في

Twitter: @alqareah

المناسبات على تأييد القوّتين البلقانيتين، بلغاريا وصربيا، إذ كانتا في حينه في طور التوسّع.

اعتمد ميخائيل الثامن بشكل أساسي، كي يواجه مثل هذا التهديد، على الدبلوماسية، حتى وإن حقّق كذلك بعض النجاحات العسكرية. لقد حاول أن يبعُد عن تحالف أنجو البابا الذي كان مستاءً من طرد البطريرك اللاتيني ومشدّداً على أنه مازال رأس الكنيسة الواحدة. اقترح عليه الإمبراطور [القيصر] كي يغريه توحيد الكنيستين، إلاّ أن مثل هذا العرض جوبه بمعارضة شديدة من الإكليروس عنده ومن القسم الأكبر من المؤمنين الذين كانوا لايزالون تحت تأثير صدمة تدنيس الكنائس خصوصاً كنيسة آيا صوفيا [الحكمة المقدّسة] من قِبل اللاتين عام 1204م، والذين كانوا لا يريدون بأي ثمن أن يقبلوا هيمنة كنيسة روما. في عام 1274م استطاع ميخائيل الثامن أن يفرض أخيراً مثل هذا الاتحاد الذي أُعلن رسمياً في مجمع ليون من قِبل ممثّليه، ولكنه بقي في الواقع بدون أي مفعول، ولم يمنع من انتخاب بابا على استعداد لتأييد شارل دانجو (Charles d'Anjou). كان ميخائيل الثامن أكثر حظاً في مؤامراته في إيطاليا ولم يكن الذهب البيزنطي غريباً عن ثورة صلاة الغروب الصقلية(*)، التي قسّمت في ربيع 1282م مملكة أنجو إلى

(*) صلاة الغروب الصقلية (Vêpres Siciliennes) هو الاسم الذي أُطلق على مذبحة الفرنسيين المقيمين بصقلية، والتي استمرت أكثر من شهر، وبدأت أعمال الشغب فيها مع أصوات أجراس الكنائس التي تدعو المؤمنين إلى صلاة الغروب يوم اثنين عيد الفصح عام 1282م. وقد ألّف فيردي، الموسيقي الإيطالي الشهير أوبرا تحمل هذا العنوان، وذلك عام 1855م. (المترجم).

Twitter: @alqareah

شطرين، بعد أن انتقلت صقلية إلى حكم بطرس الثالث من الأَراغون «Aragon». لقد ثبَّت الإمبراطور [القيصر] سيادته على البلقان إلاَّ أنه أهمل الدفاع عن الأقاليم الآسيوية، وكان يتحضَّر للقيام بتصحيح هذا الخطأ حين توفي في شهر كانون الأول/ديسمبر 1282م.

4 ـ **خسارة آسيا الصغرى**: لم يرث أندرونيك الثاني (Andronic II)، ابن ميخائيل الثامن الصفات العسكرية لوالده فكان غير قادر على إنقاذ آسيا الصغرى. تمّ في الأناضول التدمير الكامل لسلطنة السلاجقة تحت ضربات المغول. تقدّم هؤلاء نحو الغرب وطردوا القبائل الرُّحَّل التي كانت قد جاءت لتزيد عدد السكان الأتراك، خصوصاً بالقرب من الحدود البيزنطية، حيث كانوا يأملون بالإفلات من الوصاية المغولية. لم تكن الإمارة التي كان يرأسها واحد اسمه عثمان هي الأقوى من بين الإمارات التي نشأت في نهاية القرن الثالث عشر وفي بداية القرن الرابع عشر الميلادي، إلاَّ أنه كان يملك الأرضية للتوسع نحو بيتينيا المجاورة، لأنه استقر بسانغاريوس «Sangarios».

إن حقد بيزنطيي آسيا على ميخائيل الثامن المغتصب السلطة تُرجم عملياً بالتأييد الجماهيري للانفصال الأرسينوسي الذي سُمّي هكذا على اسم البطريرك أرسينيوس (Arsénios) الذي ألقى الحرم على ميخائيل الثامن بعد أن فقأ عينَي يوحنا الرابع، فأقيل من منصبه. بقي هذا العداء في عهد ابنه، ولم يسهِّل عملية مقاومة الأتراك. احتل هؤلاء في بضعة عقود الأراضي التي كانت سبب غنى إمبراطورية نيقيا. تخلّى أندرونيك عن اقتناء أسطول لأسباب اقتصادية، وهذا ما ترك الأبواب مشرَّعة أمام كل قراصنة الأمم وجعل الإمبراطورية تقع تحت وصاية جنوى والبندقية. كانت

Twitter: @alqareah

الأموال محجوزة لجيش المشاة غير أن هذا الجيش لم يكن يشكّل عقبة كافية في وجه الأتراك، وذلك على الأخص بسبب عدم الثقة التي غالباً ما كان يظهرها الإمبراطور [القيصر] تجاه قادته. صمّم أندرونيك الثاني أن يلجأ إلى فرقة من الجنود المحترفين مؤلّفة من الكاتالونيين Catalans، وقد كلّفه هذا تضحية مالية ضخمة. في عام 1304م استطاع الخمسة آلاف أو الستة آلاف من الكاتالونيين أن يحتلّوا قسماً كبيراً من آسيا الصغرى، وهذا ما يدل على أن الخصوم لم تكن في حوزتهم بعدُ قوات ضخمة، وعلى أن التقدّم التركي لم يكن أمراً لا مفر منه. ولمّا لم تتسلّم هذه الفرقة الأموال التي وُعدت بها أخذت في نهب الأراضي التي كان من المفترض فيها أن تدافع عنها، وانقلبت ضد موظفيها، ثم عادت إلى أوروبا بصحبة مساعدين أتراك، وانتهت سنة 1311م إلى أن طردت الفرنك (الفرنجة) من دوقية أثينا لكي تؤسّس دولة كاتالونية.

كان مصير آسيا الصغرى البيزنطية قد تقرّر منذ ذلك الحين: لقد سقطت أفسس وأزمير بعد ذهاب الكاتالونيين. أما في بيتينيا الأقرب إلى العاصمة فإن المقاومة كانت شديدة جداً، إلاّ أن العثمانيين انتهوا إلى أن احتلوا مدينة بورصة التي جعلوا منها عاصمتهم الأولى، ثم مدينة نيقيا ثم نيكوميديا عام 1337م. وقد لجأ العديد من اليونان إلى أوروبا، وكان انحطاط أفسس ونيقيا المدينتين الكبيرتين اللاتينيتين سريعاً جداً، من دون أن يكون قد تأتّى نتيجة عملية اضطهاد قام بها الأتراك.

5 ـ **نشأة دولة بلقانية**: إن البيزنطيين الذين كانوا على طريق الخروج من آسيا، سجّلوا تقدماً في أوروبا، أبطأته قليلاً جداً الحرب الأهلية التي نشبت بين أندرونيك الثاني وبين حفيده اندرونيك الثالث. ولقد وصل هذا إلى الحكم عام 1328م بعد أن آزره قائد عسكري هو يوحنا كانتاكوزين (Jean Cantacuzène)، وقد أعاد

Twitter: @alqareah



الشكل (4) الإمبراطورية عام 1340

Twitter: @alqareah

سيطرة الإمبراطورية على تساليا «Thessalie» والأبير «l'Épire»، ودحر البلغار وجعل الأرض من شواطئ مرمرة إلى الأدرياتيكي قطعةً واحدة. كان يبدو أن بيزنطية ستبقى قائمة ليس كإمبراطورية ولكن كدولة أوروبية، تجمع داخل حدودها معظم الشعب اليوناني.

بقيت الأقاليم الأوروبية مكتظّة بالسكان، وقد نمت المدن وأصبحت تسالونيكي منافسة إلى القسطنطينية، أما مونيمفانزيا «Monemvasie» فأخذت تنافس مرافئ البيلوبونيز اللاتينية، مودون «Modon» وكورون «Coron» وكلارونس «Clarence». ولم تكن الأراضي المزروعة في مقدونيا في أي يوم من الأيام في مثل هذا الاتسّاع. مما لا شك فيه أن منافع التجارة الدولية التي ازدادت كثيراً في القرن الثالث عشر الميلادي، قد خرجت بعد اليوم من سلطان الإمبراطورية. إن الجنويين المتحصّنين في بيرا ـ غالاطا «Péra-Galata»، كانوا يستوفون الرسوم الجمركية على حركة العبور الكثيفة التي كانت تسلك طريق البوسفور لتصل إلى البحر الأسود والسواحل الجنوبية لروسيا حيث كان للغربيين كونتوارات (comptoirs) (مباسِط سِلع) مثل تانا أو كافا.

لقد أصبحت الدولة فقيرة جداً. اضطر الأباطرة إلى أن يقدموا لخادميهم برونواي (pronoiai)، أي مداخيل ضريبية مدفوعة مباشرةً للمستفيد. ولكن أصبح الموظفون الرسميون تدريجياً أصحاب هذه الأملاك التي تدر هذه المداخيل، وانتهوا إلى أن حصلوا على أن تصبح هذه البرونواي تنتقل وراثياً، وهذا ما حدّ من سلطة الأباطرة. وقد اضطر هؤلاء أحياناً إلى أن يستعيدوا من طريق المصادرة بعض هذه الهبات، بما فيها تلك المعطاة للأديرة خصوصاً في جبل آثوس.

في عهد ميخائيل الثامن، وبعد استعادة العاصمة، بدأت أعمال الإعمار الكبرى من أجل ترميم القصور والأديرة. ولقد جمّع

Twitter: @alqareah

أحياناً الوزراء الذين تركهم الأباطرة يحكمون الثروات الطائلة، كما حصل مع ثيودور ميتوخيت (Théodore Métochite)، الذي صرف قسماً من ثروته من أجل تحسين كنيسة المخلص في خورا (Sauveur-in-Chôra)، وهي كنز من الفن البيزنطي، أثناء حكم أسرة باليولوغوس، مازال محفوظاً حتى اليوم.

III ـ بيزنطية تحت تبعية الأتراك

1 ـ **بيزنطية على مفترق طرق**: إن موت أندرونيك الثالث المبكر عام 1341، حين كان يستعد للتخلّص من آخر مخلّفات الفرنك (الفرنجة) في البيلوبونيز، أثار حرباً أهلية طويلة بين أرملته آن من السافوا (Anne de Savoie) التي كانت تعمل باسم ابنها يوحنا الخامس، وبين يوحنا كانتاكوزين (Jean Cantacuzène) الذي انتصر في النهاية عام 1347م. وكما يحصل دوماً فإن المتنافسين استدعوا القوى الأجنبية، صرب إتيان دوشان (Étienne Douchan) وأتراك عمر أيادين أو أورخان العثماني. على المدى القصير كان المنتصرون الحقيقيون للحرب الصليبية هم الصرب الذين استولوا على أراضي مقدونيا واليونان التي كان قد استعادها، قبل ذلك ببضعة عقود، وبتضحيات كبرى أنصار الإمبراطورية. تُوّج إتيان دوشان باسيليوس (ملكاً) على صربيا ورومانيا. أما بالنسبة إلى العثمانيين والأمراء الأتراك الآخرين فقد تعلّموا كيف يعرفون طرق تراس ومقدونيا.

اتسم عهد يوحنا السادس كانتاكوزين بوباء الطاعون الأسود الذي، كما في كل بقية أوروبا، ضرب السكان بقسوة، خصوصاً سكان القسطنطينية. ووجد الإمبراطور [القيصر] نفسه وقد جُرّ إلى الدخول في المنافسة بين البندقية وبين جنوى، وقد

Twitter: @alqareah

فشل في محاولته أن يعطي بيزنطية أسطولاً يضمن لها استقلالها. وفي النهاية وفي عام 1354م اضطر يوحنا السادس، الذي كان قد تحالف مع الأتراك فأثار عداء الرأي العام، إلى التنازل عن العرش لصالح الوريث الشرعي يوحنا الخامس باليولوغوس. وفي هذه السنة عينها حصل زلزال أرضي عنيف أسقط أسوار غاليبولي «Gallipoli» فاستولى الأتراك على القلعة وسيطروا على الدردنيل وأخذوا يجوبون منطقة تراس بحرية كاملة.

2 ـ **بيزنطية مقاطعة للأتراك**: إن الخصم الوحيد القادر على مواجهة الأتراك وهو إتيان دوشان من صربيا، مات عام 1355م وتفككت إمبراطوريته. إن العثمانيين الذين كان يؤيِّدهم جنود إمارات أخرى، وكانت تدفعهم روح الغازي وإرادة الفتح والغنيمة على حساب المسيحيين، تغلبوا على الصرب على شواطئ نهر الماريتسا «Maritsa» [لاماريكا أو أفروس] عام 1371 من دون أن يكون هناك رد فعل بيزنطي. وحوّل السلطان مراد الأول عاصمته من بورصه إلى أدرنوبولي [أدرنة] معبِّراً بذلك عن الطموحات الأوروبية للعثمانيين. وفي عام 1389م حصل نصر جديد للأتراك على الصرب في كوسوفو فضمن تفوّق السلطان الشاب بايزيد على البلقان. أما الدول المسيحية الباقية فأصبحت مجرد مقاطعات كما حصل مع البيزنطيين أو الصرب، أو أنهم امتصّوا كما حصل مع البلغار الذين شكّلوا ولاية من الإمبراطورية العثمانية التي كانت في طور التوسّع.

أصبحت الإمبراطورية البيزنطية تتألف من أراضٍ منفصلة بعضها عن بعضها الآخر، وغير قادرة على أن تقوم بمعارضة جدّية باستثناء مستبدية موري Morée [البيلوبونيز]. هذا الإقليم البيلوبونيزي الذي تحكمه أسرة باليولوغوس المستقرّة بميستراليس «Mistra» والمستقلّة تماماً عن القسطنطينية كانت

Twitter: @alqareah

تنمو بفضل الجاليات الألبانية، وانتهى الحكام المستبدّون إلى أن يتوسّعوا إلى ما وراء مضيق كورنثوس «Corinthe» والسيطرة على أثينا وأرسلوا قادتهم العسكريين يغزون منطقة البيلوبونيز.

لقد تدخّل العثمانيون كذلك في المنازعات العائلية التي كانت تقسم آل باليولوغوس في ما بينهم، وكان اعتلاء العرش في القسطنطينية يتطلّب موافقتهم الضمنية على الأقل. كل سياسة مقاومة كان محكوماً عليها بالفشل: مانويل الشاب، ابن يوحنا الخامس استقر بتسالونيكي، وجمع قوى تساليا مما أثار غضب السلطان، فسقطت تسالونيكي عام 1387م. واضطر مانويل هذا نفسه إلى أن يأتي على رأس فرقة يونانية لنجدة بايزيد حين أسقط هذا العام 1390م مدينة فيلادلفيا، آخر معقل يوناني مستقل في آسيا الصغرى.

بدأ بايزيد حصار العاصمة البيزنطية نحو عام 1394م، ثم صدّ عام 1396م حملة صليبية قوية في نيكوبوليس [نيكوبول في بلغاريا اليوم]. أما الإمبراطور [القيصر] مانويل الثاني فقد هجر مدينته وأقام مدة من الزمن طويلة في الغرب، وقد زار باريس ولندن حيث أثار فضولية الناس بل حتى الاهتمام، تحت تأثير عابر، ولكن من دون أن يحصل على وعود قاطعة بالمساعدة العسكرية. ولقد استسلم الغربيون لفكرة نهاية الإمبراطورية العجوز، غير أن غازياً قادماً من آسيا الصغرى هو تيمورلنك، حرَّضه الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى الذين عزلهم العثمانيون على الثأر لهم، سحق جيش بايزيد في أنقرة عام 1402م معطياً بذلك نصف قرن من الهدنة غير المتوقّعة للبيزنطيين. بالفعل، فإن المطالبين بخلافة بايزيد كانوا بحاجة إلى أقل مساعدة حتى مساعدة بيزنطية التي استرجعت تسالونيكي وبعض الأراضي الساحلية على بحر مرمرة.

Twitter: @alqareah

3 ـ **المجتمع في أزمة**: إن أوبئة الطاعون المتكررة والهجمات التركية المستمرة تسببت بنقص واضح في السكان إلى أن سمح السِّلم العثماني، ابتداءً من منتصف القرن السادس عشر، بعودة النمو السكاني. لقد أُنهكت المدن تماماً. لم يبق في تسالونيكي، بعد سبع سنوات من الحصار سوى 10000 ساكن عام 1430م، كما أن طرابزون لم يعد فيها أكثر من هذا العدد عام 1461م. كورنثوس وباتراس ومستراليس في أي منها لم يكن سوى بضعة آلاف من السكان في أحسن الأحوال أما أثينا فليس فيها حتى ألف مواطن نحو سنة 1400م.

إن الأرستقراطية العقارية التي زوّدت الإمبراطورية بكبار موظَفيها، تلاشت في نحو منتصف القرن الرابع عشر، في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية تفقد كل أراضيها. قوَّضت الحرب الأهلية الأرستقراطيين الأغنى، وكان تأثيرهم موضع احتجاج أثناء حركة تمرّد من سمّوا المتهوّرين (Zélotes) في تسالونيكي. في هذه المدينة الأخيرة وكذلك في مدينة أندرنوبلي [أدرنة] طُرد أنصار يوحنا السادس وكانوا من الأرستقراطية، وأحياناً ذُبحوا، ولم يكن الفلاحون هم الذين قاموا بهذا العمل، بل بالأحرى قام به الحرفيّون وتجّار المدن. وقد توصّل هؤلاء إلى أن يحكموا تسالونيكي خلال عدّة سنوات. بعض المدن البيزنطية مثل فيرويا «Verroia» وأيوانيا «Ioannina» وكرويا «Kroia» نمت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وحصلت على امتيازات من الإمبراطور [القيصر] اعترفت لها بحقوق ضريبية، وبعض الاستقلال الذاتي كأمر واقع.

إن الأرستقراطيين الذين استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة اختلطوا بأغنى التجّار كي يشكّلوا آخر نخبة حاكمة. كان اللاتين من إيطاليين وكاتالونيين يسيطرون على التجارة الدولية، خصوصاً أنهم كانوا يمسكون بمعظم الجزر الهامة في بحر إيجه، من دون الكلام

Twitter: @alqareah

على الكونتوارات (مباسِط السِلع) مثل كورون أو مودون في البيلوبونيز أو فوسيا «phocée» في آسيا الصغرى. غير أن المحفوظات اللاتينية تبرهن على أن مساهمة اليونان في التبادل التجاري كانت أكبر مما كان يُظن في السابق. فلقد كان البحّارة اليونان نشطين جداً في ملاحة السواحل، وقد تشارك بعضهم مع اللاتين. لقد كانت أسرة نوتاراس (Notaras) التي أنجبت آخر دوق أكبر في الإمبراطورية، وهو لوقا (Luc) من مدينة مونيمفازيا، مرفأ في مقاطعة موريا [البيلوبونيز]، محصّنة جداً وبحّارتها مقدامون. خلال بضعة أجيال استطاعت أسرة نوتاراس، وهي لم تكن حالة فريدة، أن تجمع ثروة كبيرة وضعتها من باب الاحتراز، في صناديق مصارف جنوى والبندقية. إن الضيق المالي الذي عرفته الدولة البيزنطية خلال القرن الأخير من وجودها لم يكن يعني ضمناً اختفاء الثروات الكبرى الخاصة.

لقد فقدت الكنيسة كذلك العديد من أملاكها الشاسعة، بعد أن صادر الأباطرة بعضها بحثاً عن موارد أخيرة للدفاع، وضاع البعض الآخر وقت الفتح. إلاّ أن المجموعة القوية لأديرة جبل أثوس نجحت، بعد أن تفاوضت مع السلطان، في الحصول على اعتراف بملكيّتها لجزء من أراضيها الشاسعة السابقة، وهكذا ضمنت استمرارية الجبل المقدّس.

4 ـ **الانكفاء إلى الهوية**: هناك حركة روحية قامت منذ أن نشأت الرهبنة، كما هو مثبت، تسمى الهيزيكاسم (Hésychasme)(*)

(*) اشتقت الحركة اسمها من كلمة هيسوخيا اليونانية وهي تعني السلام ومن هنا ترجمتنا لها بالسلاموية، وهي تقوم على الطمأنينة الداخلية عن طريق التأمل والذكر للتوصل إلى نوع من الإشراقية (المترجم).

Twitter: @alqareah

(السلاموية) ـ السكينة التي تسمح بها الصلاة الداخلية بذكر اسم يسوع، والتي توصّل أحياناً إلى إدراك النور الإلٰهي ـ هذه الحركة عرفت في القرن الرابع عشر تجديداً على يد راهب من جبل أثوس هو غريغوريوس سينائيتس (Grégoire Sinaïtès). وقد طوّر تلميذه غريغوريوس بالاماس (Grégoire Palamas) مذهباً حقيقياً دخل بعد سجالات حادة كتاب السينوديكون (Synodikon) للأُرثوذكسية، وهذا الكتاب هو عبارة عن وثيقة ليتورجية، يحوي بين ما يحوي الأناثيمات anathèmes (اللعنات) ضد مختلف أصناف الهراطقة. والحال هو أن أتباع غريغوريوس بالاماس كانوا يعدون بين أعنف خصوم التقارب مع روما.

لقد بدا للبيزنطيين أن التمسّك بأهداف دين آبائهم هو الطريق الأضمن لخلاصهم، ذلك أن التقدّم التركي كان يشير إلى نهاية محتملة للإمبراطورية. ولقد تساءل مسؤولو الكنيسة عن بقاء الكنيسة في مثل هذه الحال. مما لا شك فيه أن البطريرك أنطونيوس كان يستطيع أن يبعث بتنبيه إلى الدوق الأكبر في موسكو الذي لم يعد يريد أن يعترف بسلطة الإمبراطور [القيصر] كملك كوني عام للمسيحية بأكملها، غير أن قسماً من الإكليروس اليوناني كان يضع بقاء الكنيسة فوق بقاء الإمبراطورية. ولقد بان ذلك واضحاً أثناء مجمع فيراري ـ فلورنسا «Ferrare-Florence» بن عامي 1438 ـ 1439. فقد تحمّل الإمبراطور [القيصر] يوحنا الثامن عناء السفر بنفسه مع البطريرك وكوكبة من المثقفين ومنهم جورج سكولاريوس «Georges Scholarios». وهناك تقرّر اتحاد الكنائس كنتيجة للمناقشات الأعمق التي جرت في كل التاريخ، وقد وقّعه كل المشاركين اليونان سوى متروبوليت (مطران) أفسس، مرقص أوجينيكوس (Marc Eugénikos). أما

Twitter: @alqareah

سكولاريوس فقد غيّر موقفه واعتبر أن الخضوع للبابا على حساب التخلّي عن مواقع الكنيسة البيزنطية في نقاط تخص العقيدة كزيادة «والابن»(*) في دستور الإيمان، يشكّل تنازلاً غير مقبول، لأنه يمس خلاص النفس، من أجل الحصول على التحالف مع الغربيين الذي لم يكن من المؤكّد أنه سيخلّص الأجساد من الخضوع للأتراك. إن هذا التشدّد من سكولاريوس قاده إلى أن يصبح أول بطريرك يعينه السلطان المنتصر، الذي ما كان عليه الخشية من محاولة الرئيس الجديد للكنيسة «الأُرثوذكسية» البحث عن التحالف مع اللاتين من أجل تحرير شعبه.

هذا الموقف لم يحصل إجماع حوله. آخر إمبراطورين وهما يوحنا الثامن وقسطنطين الحادي عشر أيّدا الاتحاد، إذا كانا ينتظران بتلهف نجدة الغرب. أما في داخل الكنيسة فإن بعض رجال الإكليروس انتهوا بأن أصبحوا أعضاء في رهبانية الرهبان المبشّرين في بيرا «Péra». هناك موقع آخر على وثيقة الإتحاد هو بيسارون متروبوليت (مطران) نيقيا، وقد صار في ما بعد كاردينالاً [في الكنيسة الكاثوليكية] وأنهى حياته الدينية في البلاط البابوي حيث بقي يناضل من أجل تنظيم حملة صليبية ضد الأتراك، وقد وهب مكتبته الرائعة للبندقية. غالباً ما اعتبر البعض أن كره اللاتين كان يغلب على الكراهية للأتراك، وقد نُسب إلى الدوق الأكبر لوقا نوتاراس (Luc Notaras) تصريح يقول فيه: «من

(*) هذه القضية التي تخص الروح القدس، هل هو منبثق من الآب كما جاء في دستور الإيمان الأصلي أم من الآب والابن كما قررت الكنيسة الكاثوليكية لاحقاً، لا تزال موضع خلاف مع الكنيسة الأُرثوذكسية إلى اليوم. (المترجم).

Twitter: @alqareah

الأفضل أن نرى عمامة الأتراك تحكم القسطنطينية من أن يحكمها تاج البابا». إن كانت مثل هذه الجملة قد قيلت فعلينا ألاّ ننسى أن نوتاراس كان كذلك مواطناً من مواطني البندقية وجنوى حيث كان قد وضع معظم ثروته، وانه قد أُعدم مع أبنائه بناءً على أوامر السلطان محمد الثاني، وأن آنّا ابنته التي بقيت على قيد الحياة، أنهت بقية أيام حياتها في البندقية. من ناحية أخرى، صحيح أنه بعد عام 1453م العديد من الأرستقراطيين اليونان وضعوا أنفسهم في خدمة السلطان، وأن بعضهم أسلم.

5 ـ **سقوط القسطنطينية**: إن الهدنة التي أتاحتها معركة أنقرة كانت لفترة قصيرة. فلقد أعادت الدولة العثمانية تشكيل وحدتها واستعادت الأراضي التي فُقدت عام 1402م. كانت تسالونيكي قد دعت البندقية إلى الدفاع عنها إلاّ أنها سقطت نهائياً عام 1430م. لم يبق من الإمبراطورية القديمة سوى منطقة الموري [البيلوبونيز]، وإمبراطورية طرابزون المتواضعة والقسطنطينية التي لم تعد سوى مجرد جيب (enclave) داخل الأراضي العثمانية. إن وضعها على البوسفور كان يسمح لها بتشغيل مرفأها، وكان يكفي لإطعام سكانها البالغ عددهم من 50000 إلى 70000 نسمة. كانت قد فقدت العديد من صروحها القديمة، بسبب الإهمال مثل القصر الكبير الذي سقط وأصبح خراباً. وحين وصل إلى السلطة عام 1451م سلطان شاب هو محمد الثاني لم تقلق القوى الغربية نظراً لأنه كان يعتبر غير كُفْءٍ، عدا عن أن أسوار القسطنطينية كانت قد صدّت أباه مراد الثاني. غير أن محمد الثاني كان يحتاج إلى عمل باهر: إن فتح القسطنطينية يكمل توحيد أراضيه ويعطيه عاصمة لا نظير لها. قرَّر أن يقص البوسفور عن طريق بناء قلعة جديدة، روميلي حصار، وقد شُيِّدت إلى حدّ بعيد بفضل حجارة الأديرة البيزنطية الواقعة في ضاحية القسطنطينية، ثم استعدّ

Twitter: @alqareah

لحصار المدينة، وقد جمع جيشاً جرّاراً يمتلك المدافع، وكان أكبرها حجماً قد صبّه مهندس هنغاري.

لم يبق قسطنطين الحادي عشر دراغاسيس (Constantin XI Dragasès) مكتوف اليدين، بل أرسل العديد من السفراء إلى الغرب، غير أن هزيمة آخر حملة صليبية في فارنا «Varna» عام 1444م أضعف الهنغاريين واستنفد التعزيزات التي كان يمكن أن تأتي من الغرب. ولم تكن الجمهوريتان الإيطاليتان في جنوى والبندقية في وضع يمكّنهما من أن تُنجدا بكثافة اليونان، غير أن فرقة من المتطوّعين الجنويين بقيادة جوستنياني لونغو (Giustiniani Longo)، وفرقة من النبالة موّلها البابا، إضافةً إلى بندقيي القسطنطينية والجالية الكاتالونية ساهموا جميعاً في عملية الدفاع الأخير عن المدينة القديمة.

بدأ محمد الثاني الحصار في نيسان/أبريل 1453م. وقد قام بمناورة جريئة فجعل سفنه تمر بهضبة غلطة «Galata» من أجل الاستيلاء على القرن الذهبي وإجبار المدافعين على حماية الأسوار البحرية. كانت هناك لمدة هجمات فاشلة على الرغم من فتح بعض الثغرات في الأسوار، إلاّ أن الإنكشارية انتهوا إلى اجتياز السور. وسقط آخر الأباطرة في الخفاء وهو يقاتل مع المقرّبين منه. وبعد مذبحة قصيرة ولكن رهيبة أَتبعها عملية نهب أمر محمد الثاني بوقفها سريعاً كي يحافظ على مستقبل عاصمته المقبلة. ودخل السلطان بشكل مهيب إلى كنيسة آيا صوفيا [الحكمة الإلٰهية] حيث كان الإمبراطور [القيصر] في اليوم السابق قد تلقى آخر الأسرار الكنسية أثناء آخر قدّاس مسيحي يقام هناك. حين احتل السلطان ميسترا عام 1460م، وطرابزون في السنة التالية كان قد أتم عملية الاستيلاء على آخر الأراضي اليونانية.

Twitter: @alqareah

الخاتمة

حين أنهى پول لوميرل كتابه «تاريخ بيزنطية»، اتّهم الغرب وفي المقام الأول الصليبيين بأنهم كانوا السبب الرئيسي وراء زوال إمبراطورية الشرق. وقد أفاض البابا يوحنا بولس الثاني في هذا الاتجاه وعبّر عن ندم الكنيسة الرومانية لمساهمتها في مصائب الشرق المسيحي. إن كان علينا عدم إعفاء الغرب من مسؤولياته، غير أن أسباب السقوط النهائي للقسطنطينية هي في نظري أعقد من ذلك.

أولاً، إن الشعور بالإعجاب هو الذي يجب أن يستحوذ علينا. عصر الأنوار [القرن الثامن عشر] لم يَر في التاريخ البيزنطي سوى «نسيج من التمرّدات وحركات العصيان وأعمال الغدر» مونتسكيو (Montesquieu)، أو «انتصار البربرية والدين» جيبون (Gibbon). مع ذلك، فإن بقاء الإمبراطورية أكثر من ألف سنة في وجه ظروف معادية في الغالب، ألا يدعونا إلى اعتباره كإنجاز خارق؟ هناك إمبراطوريات أخرى ظهرت مثل البِنية الأخّاذة للخلافة الإسلامية التي امتدت حدودها من أعمدة هرقل إلى آسيا الوسطى. والحال أنه قبل أن يمر عليها قرنان من الوجود كانت قد أصبحت في طريقها إلى التمزّق، في حين أنها كانت تسيطر على مصر الغنية وبلاد ما بين النهرين المزدهرة. أما الإمبراطورية العثمانية التي خلفت بيزنطية فقد دامت مدة أطول، وكان ذلك من دون شك لأنها ورثت

Twitter: @alqareah

جزئياً تقاليد إدارية من سالفتها، غير أنها في نهاية أربعة قرون لم تستطع أن تصمد أمام ظهور الدول ـ الأمم. في الغرب، الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدّسة تستطيع أن تصمد أمام المقارنة، مع أنها قامت على بِنىً مختلفة تماماً.

وكما لاحظنا فإن بيزنطية برهنت عن مقدرة مذهلة بالتكيف، وذلك على الرغم من خطاب رسمي ألحّ على ثبات بِنًى وُضعت أيام قسطنطين وخلفائه. لقد غيَّرت الإمبراطورية في مسيرة وجودها مرّات عدّة نظامها الضرائبي، وطريقة تكوين جيوشها، وطابع ممارسة السلطة، وحاولت إيجاد أفضل توازن ممكن بين استقلال ذاتي محلّي ضروري وبين تماسك مركزي منقِذ.

ولكن لماذا إذاً سقطت بيزنطية في النهاية؟ إن الهزائم العسكرية لا تعطينا مفتاح الجواب، نظراً لأن القليل من هذه المعارك كان حاسماً، إن نحن استثنينا معركة اليرموك عام 636م. علينا أن نبحث عن السبب الأول في النظام الملكي الذي يربط كثيراً حسن سير الإمبراطورية بالملك. بالطبع، فإن مغتصب السلطة يطرد الإمبراطور [القيصر] السيِّئ لصالح ملك أكثر حيوية، غير أننا حين نتفحّص ظروف التدهورات الكبرى للإمبراطورية فإننا سنلاحظ دوماً أن سلطة الإمبراطور [القيصر] تضعفها دوماً الحرب الأهلية أو قيام عهد وصاية: إن تقدّم الفرس سهّله التنافس بين فوكاس (هرقل)، كذلك فإن تداعيات منتزيكيرت «Mantzikert» عام 1071م ازدادت وتضخّمت بسبب الحروب الأهلية بين المتنافسين على الإمبراطورية، ولقد انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن مسارها بحجّة وجود نزاع داخلي في أسرة أنجيلوس. أخيراً، فإن التصارع بين أنصار يوحنا الخامس ويوحنا السادس، في منتصف القرن الرابع عشر حرم آخر رجالات الدولة البيزنطية من كل إمكانية للبقاء.

Twitter: @alqareah

غير أن كل هذا لا يسمح لنا بأن نعفي الغرب كليةً من مسؤولياته. لقد استطاعت بيزنطية دوماً أن تقوم من بين كوارثها لأنه لم يكن لها منافس كبير في الغرب المسيحي. إن القطيعة التي كانت واضحة في مسيرة جُزءَي المسيحية، أثناء القرنين الحادي عشر والثاني عشر انتهت إلى سوء تفاهم حقيقي، تمثّل من جهة اللاتين بوحشية ناتجة عن قوّتهم الاقتصادية والعسكرية التي كانت في أوج انطلاقها. ولم يستطع أفراد أسرة باليولوغوس الحاكمون التوصّل إلى حل يوفق بين المتطلّبات المتناقضة بين الكراهية العميقة الشعبية اليونانية تجاه اللاتين وبين ضرورة التكيّف معهم لمقاومة الأتراك. أما اللاتين فقد أعمتهم المصالح الخاصة لمدنهم التجارية، ولم يفهموا إلاّ بعد فوات الأوان أن بيزنطية تشكّل حصناً في مواجهة زحف الأتراك الذي يمكن مقاومته، كما كانت حصناً قبل ذلك بعدّة قرون في مواجهة العرب.

ويبقى التراث ضخماً. لقد ساهمت الحضارة البيزنطية بشكل حاسم في نقل علم العصر القديم، ولقد نشرت مؤسّساتها ومسيحيّتها في العالم السلافي؛ كذلك، فإن العرب والأتراك تلقّوا بصماتها، وقد أبقت آسيا الصغرى، خلال ألف سنة، في العالم المسيحي.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

لائحة الأباطرة الرومان

[القياصرة الروم]

(في القسطنطينية ابتداءً من عام 395م)

1 ـ قسطنطين الأول	337–324
2 ـ كونستانس الثاني (قسطنطينوس)	361–337
3 ـ يوليانوس المرتد	363–361
4 ـ يوفيان	364–363
5 ـ فالنس	378–364
6 ـ ثيودوسيوس الأول	395–379
7 ـ أركاديوس	408–395
8 ـ ثيودوسيوس الثاني	450–408
9 ـ مارسيان	457–450
10 ـ ليون الأول	474–457
11 ـ ليون الثاني	474
12 ـ زينون	491–474
13 ـ أناستازيوس الأول	518–491

Twitter: @alqareah

14 ـ يوستينيوس الأول	527-518
15 ـ يوستنيانوس الأول	565-527
16 ـ يوستينيوس الثاني	578-565
17 ـ تيبير الثاني	582-578
18 ـ موريس	602-582
19 ـ فوكاس	610-602
20 ـ هرقل	641-610
21 ـ قسطنطين الثالث هيراكليوس (هرقل)	641
22 ـ هيراكلوناس (هيراكليوس) قسطنطين	641
23 ـ كونستانس الثاني (قسطنطين) هيراكليوس	668-641
24 ـ قسطنطين الرابع	685-668
25 ـ يوستنيانوس الثاني	695-685
26 ـ ليونس	698-695
27 ـ تيبيرا الثالث أبسيمار	705-698
28 ـ يوستنيانوس الثاني (العهد الثاني)	711-705
29 ـ فيليبيكوس بردانيس	713-711
30 ـ أناستازيوس الثاني أرتيموس	715-713
31 ـ ثيودوسيوس الثالث	717-715
32 ـ ليون الثالث الأيصوري	741-717
33 ـ قسطنطين الثالث البرازي	775-741
34 ـ ليون الرابع الخزار	780-775
35 ـ قسطنطين السادس الأعمى	797-780

Twitter: @alqareah

36 ـ إيرين	802-797
37 ـ نقفور الأول	811-802
38 ـ ستاور اكيوس	811
39 ـ ميخائيل الأول رانغابي	813-811
40 ـ ليون الخامس الأرمني	820-813
41 ـ ميخائيل الثاني العموري	829-820
42 ـ تيوفيلس	842-829
43 ـ ميخائيل الثالث	867-842
44 ـ باسيل الأول المقدوني	886-867
45 ـ ليون السادس الحكيم	912-886
46 ـ الإسكندر	913-912
47 ـ قسطنطين السابع برفيرو غنتس	959-913
48 ـ رومان الأول ليكابين، قيصر مشارك	944-920
49 ـ رومان الثاني برفيرو غنتس	963-959
50 ـ باسيل الثاني	1025-963
51 ـ نقفور الثاني فوكاس، قيصر مشارك	969-963
52 ـ يوحنا الأول تزيمكسس، قيصر مشارك	976-969
53 ـ قسطنطين الثامن بروفيرو غنتس	1028-1025
54 ـ رومان الثالث أرغيروس	1034-1028
55 ـ ميخائيل الرابع البفلاغوني	1041-1034
56 ـ ميخائيل الخامس قلفاط	1042-1041
57 ـ زويي، برفيرو غنتس	1042

Twitter: @alqareah

58 ـ قسطنطين التاسع مونوماخس	1055–1042
59 ـ تيودورا برفيرو غنتس	1056–1055
60 ـ ميخائيل السادس برانغس	1057–1056
61 ـ إسحق الأول كومنينس	1059–1057
62 ـ قسطنطين العاشر دوكاس	1067–1059
63 ـ ميخائيل السابع دوكاس	1078–1067
64 ـ رومان الرابع ديوجينيس، قيصر مشارك	1071–1068
65 ـ نقفور الثالث بوتانياتس	1081–1078
66 ـ ألكسي الأول كومنينس	1118–1081
67 ـ يوحنا الثاني كومنينس	1143–1118
68 ـ منويل الأول كومنينس	1180–1143
69 ـ ألكسي الثاني كومنينس	1183–1180
70 ـ أندرونيك الأول كومنينس	1185–1183
71 ـ إسحق الثاني انجيلوس	1195–1185
72 ـ ألكسي الثالث انجيلوس	1203–1195
73 ـ إسحق الثاني انجيلوس (العهد الثاني)	1204–1203
74 ـ ألكسي الرابع انجيلوس قيصر مشارك	1204–1203
75 ـ ألكسي الخامس مورتزوفلس	1204
76 ـ ثيودور الأول لساركس (في نيقيا)	1221–1208
77 ـ يوحنا الثالث دوكاس فاتتزس	1254–1221
78 ـ ثيودور دوكاس (في تسالونكي)	1230–1224
79 ـ ثيودور الثاني لسكارس	1258–1254

Twitter: @alqareah

80 ـ يوحنا الرابع لسكارس	1261-1258
81 ـ ميخائيل الثامن باليولوغوس	1282-1259
82 ـ أندرونيك الثاني باليولوغوس	1328-1282
83 ـ أندرونيك الثالث باليلوغوس	1341-1328
84 ـ يوحنا الخامس باليولوغوس	1376-1341
85 ـ يوحنا السادس كانتاكوزين، قيصر مشارك	1354-1347
86 ـ أندرونيك الرابع باليولوغوس	1379-1376
87 ـ يوحنا الخامس باليولوغوس (العهد الثاني)	1391-1379
88 ـ يوحنا السابع باليولوغوس	1390
89 ـ منويل الثاني باليولوغوس	1425-1391
90 ـ يوحنا الثامن باليولوغوس	1448-1425
91 ـ قسطنطين الحادي عشر باليولوغوس	1453-1449

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

بيبليوغرافيا

The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford, Oxford University Press, 1991 (les entrées comportent une bibliographie).

Histoire du christianisme, sous la direction de J.-M. Mayeur, Ch. Piétri, A. Vauchez, M. Venard, t. III, IV, V, VI, VII, VIII, Paris, Desclée, 1990-2000 (Contributions pour Byzance et le Caucase, de P. Maraval, B. Flusin, N. Garsoïan, B. Martin, G. Dagron, J.-P. Mahé, É. Patlagean, M.-H. Congourdeau et A. Ducellier).

H. Ahrweiler, *Études sur les structures administratives et sociales de Byzance*, Londres, Variorum Reprints, 1971.

M. Angold, *The Byzantine Empire, 1025-1204*, London-New York, Longman, 1997[2].

J. Beaucamp, *Le statut de la femme à Byzance (IV^e-VII^e siècle)*, I. *Le droit impérial* ; II. *Les pratiques sociales*, Paris, De Boccard, 1990-1992.

K. N. Cigaar, *Western Travellers to Constantinople. The West and Byzantium, 962-1204 : Cultural and Political Relations*, Leiden - New York - Cologne, Brill, 1996.

G. Dagron, *Empereur et prêtre. Étude sur le « césaropapisme » byzantin*, Paris, Gallimard, 1996.

A. Ducellier *et al.*, *Byzance et le monde orthodoxe*, Paris, Armand Colin, 1996.

A. Guillou, *La civilisation byzantine*, Paris, Arthaud, 1990.

J. Haldon, *Warfare, State and Society in the Byzantine World, 565-1204*, Londres, University College London Press, 1999.

–, *Byzantium in the Seventh Century : The Transformation of a Culture*, Cambridge, Cambridge University Press, 1990.

R. Janin, *Constantinople Byzantine*, Institut français d'études byzantines, Paris, 1964[2].

A. H. M. Jones, *The Later Roman Empire, 284-602 : A Social, Economic and Administrative Survey*, Baltimore, The Johns Hopkins University Press, 1992.

A. P. Kazhdan, S. Ronchey, *L'aristocrazia bizantina dal principio dell'XI alla fine del XII secolo*, Palerme, Sellerio, 1997.

A. Laiou (ed-in-chief), *The Economic History of Byzantium from the Seventh through the Fifteenth Century*, Washington DC, Dumbarton Oaks Research Library and Collection, 2002.

P. Lemerle, *Cinq études sur le XI^e siècle byzantin*, Paris, CNRS, 1977.

R. J. Lilie, *Byzantium and the Crusader States, 1096-1204*, Oxford, Clarendon Press, 1993.

P. Magdalino, *The Empire of Manuel I Komnenos (1143-1180)*, Cambridge, Cambridge University Press, 1993.

– (ed.), *Byzantium in the Year 1000*, Leiden-Boston, Brill, 2003.

C. Mango, *Byzantium. The Empire of New Rome*, Londres, Weidenfeld & Nicolson, 1980.

Twitter: @alqareah

C. Mango, *Le développement urbain de Constantinople (IVe-VIIe siècle)*, Paris, De Boccard, 1990[2].
C. Morrisson (dir.), *Le Monde byzantin*, I. *L'Empire romain d'Orient (330-641)*, Paris, PUF, 2004. (Les volumes II (641-1204) et III (1204-1453), paraîtront en 2005.)
D. M. Nicol, *The Last Centuries of Byzantium, 1261-1453*, Cambridge, Cambridge University Press, 1993[2].
N. Oikonomidès, *Les listes de préséance byzantines des IXe et Xe siècles*, introduction, texte, trad. et com., Paris, CNRS, 1972.
W. Treadgold, *A History of the Byzantine State and Society*, Stanford, Stanford University Press, 1997.

QUELQUES SOURCES TRADUITES

Eusèbe de Césarée. La théologie politique de l'Empire chrétien : louanges de Constantin (triakontaétérikos), introd., trad. orig. et notes P. Maraval, Paris, Éd. du Cerf, 2001 (IVe siècle).
Procope de Césarée. Histoire secrète, trad. et com. P. Maraval, Paris, Les Belles Lettres, 1990 (VIe siècle).
Chronicon Paschale 284-628 AD, transl. with notes and introd. M. Whitby and Mary Whitby, Liverpool, Liverpool University Press, 1989 (IVe-VIIe siècle).
The Chronicle of Theophanes Confessor, translated with introd. and comment. C. Mango and R. Scott, with the assistance of G. Greatrex, Oxford, Clarendon Press, 1997 (IVe-IXe siècle).
Jean Skylitzès. Empereurs de Constantinople, trad. B. Flusin et notes J.-Cl. Cheynet, Paris, Lethielleux, 2003 (IXe-XIe siècle).
Michel Psellos, *Chronographie*, éd. É. Renauld, Paris, Les Belles Lettres, 1967[2] (XIe siècle).
Anne Comnène. Alexiade, éd. B. Leib, Paris, Les Belles Lettres, 1967[2] (XIe-XIIe siècle).
O City of Byzantium : Annals of Niketas Choniates, transl. H. J. Magoulias, Detroit, Wayne State University Press, 1984 (XIIe-XIIIe siècle).
Georges Pachymérès. Relations historiques, éd. et trad. A. Failler, Paris, Les Belles Lettres - IFEB, 1984-2000 (XIIIe-XIVe siècle).
Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, an annotated translation of *Historia Turco-Byzantina*, H. J. Magoulias, Detroit, Wayne State University Press, 1975 (XVe siècle).

Twitter: @alqareah

المحتويات

Twitter: @alqareah

تاريخ بيزنطية

في الحادي والعشرين من أيار (مايو) 330م شكلت الاحتفالات التي صاحبت تأسيس قسطنطين للمدينة التي أعطاها اسمه ولادة الإمبراطورية العتيدة "بيزنطية"، في حين أنّ الأباطرة فسروها دوماً رومانية. دامت هذه الإمبراطورية أكثر من ألف سنة، إلى حين سقوط القسطنطينية عام 1453م.
يرسم هذا الكتاب التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لبيزنطية، ويرينا كيف أن إمبراطورية الشرق هذه، وعلى الرغم من الخطابات الرسمية المنادية بثبات المؤسسات وعدم تغييرها، عرفت كيف تتكيف مع الظروف، وهي تبحث باستمرار عن التوازن المعقد بين استقلال ذاتي وتماسك مركزي يتحكم بكل شيء.

جان – كلود شينيه

أستاذ التاريخ البيزنطي في جامعة السوربون منذ عام 1995. ناشر مجلة الدراسات البيزنطية (منذ عام 1995). من مؤلفاته: أباطرة القسطنطينية، 2003، الأرستقراطية البيزنطية ووظيفتها العسكرية، 2006.

د. جورج زيناتي

من مواليد حيفا 1935، وهو أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية، وحائز على جائزة الشيخ زايد للكتاب في الترجمة، أبو ظبي، 2007.
أبرز ترجماته: الذات عينها كآخر، تاريخ الكثلكة، الفلسفة الأخلاقية، و"الذاكرة، التاريخ والنسيان" لـ بول ريكور.

ISBN 9959-29-401-3



موضوع الكتاب تاريخ

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com